قيام دولة المرابطين

وجهاد " ابن تاشفين "

وولده " علىّ "

فى المغرب والأندلس

دكتور

أحمد الحفناوى

أستاذ التاريخ والحضارة

عميد كلية اللغة العربية

بإيتاى البارود

جامعة الأزهر

العالم الإسلامى فى هذا العصر

كان العالم الإسلامى فى هذا العصر مجزأ إلى دول عديدة : منها دول اتسع نفوذها فشملت مناطق واسعة ، فالسلاجقة استولوا على العراق من يدى بنى بويه ، والفاطميون استقروا فى مصر ، والصنهاجيون حلفاؤهم السابقون فى أفريقية .. وفى هذه الظروف كان المسلمون يستعدون للاصطدام بالعالم المسيحى المتعصب من أجل الدفاع عن الأراضى المقدسة خاصة والأملاك الإسلامية عامة .. وقد كتب لهذه الدول - بالإضافة إلى المرابطين - أن تصطدم بالمسيحيين فى وقت متقارب .. فقد استولى النورماندوين على المهدية وزويلة من يدى الصنهاجيين سنة ٤٧٦هـ ، ثم عادوا إليها سنة ٥١٧هـ ، ثم احتلّوها سنة ٥٤٤هـ بعد حروب عنيفة حتى طردهم عبد المؤمن بن على سنة ٥٥٥هـ بينما أخذ الصليبيون انطاكية من يدى بنى خوارزم شاه سنة ٤٩١هـ بعد أن احتلوا بيت المقدس سنة ٤٨٩هـ ، وقتلوا آلافاً عديدة من سكانها فى المسجد (١) أما فى الأندلس فقد كان المرابطون يصارعون قوات قشتالة وأراغون التى تمكنت قبل ذلك بقليل من تغليب المسلمين بعضهم على بعض واغتصاب عدة مدن أهمها طليطلة .

ولم يسلك المسلمون سياسة التعاون والحكمة فى هذه الظروف الحرجة .. فالعرب فى أفريقية الذين سلطهم الفاطميون على الصنهاجيين يقومون بأعمال التخريب والنهب ، بينما يستنجد وزير فاطمى بالفرنج .. ويقع الصراع بين السلاجقة والخليفة فى بغداد .. وفى لجة هذه الاضطرابات كان المرابطون يعملون على رفع لواء الإسلام بالمغرب إلى الأبد وفى

---

(١) ابن خلدون : جـ٥ ص ٤٤ .

الأندلس لمدة أربعة قرون أخرى .. كما قيض الله للإسلام فى الشـــرق بعـــد ذلك بقليل أن يرفع رأسه عالياً ، صلاح الدين الأيوبى ، الذى عاصر زميلـــه الكبير فى المغرب ، المنصور الموحدى . ([1])

المغرب قبيل الغزو المرابطى

فى أوائل القرن الخامس الهجرى كان المغرب يعانى محنـــة سياســـية ودينية ، فالشعوذة والتنبؤ عمت جزءاً كبيراً منه فى جزئه الأقصى .. وقـــد ذكر ابن عذارى : " أن أهل المغرب كانوا يتولون أمور بلادهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس " .

فكان ابن عذارى يشبه الحالة فى المغرب بحالة الأندلس من حيـــث أن كلاً من البلدين قد تحكمت فيه طوائف متعددة أو دويلات طائفية ..

وباستعراض تلك الطوائف التى سادت المغرب قبيل وصول المرابطين نجد أنها كانت تنحصر فى هذه القوى الأربع : ([2])

١- قبائل برغواطة فى الغرب .

٢- قبائل زناتة التى كانت تُكَون نطاقاً حول برغواطة وغيرها من القبائل .

٣- طوائف الشيعة الرافضة والوثنيين فى الجنوب .

٤- قبائل غمارة فى الشمال .

([1]) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، المجلد الأول ، ص ١٦٤ ، الدار البيضـــاء سنة ١٩٦٥م .

([2]) د . أحمد مختار العبادى : مقال الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كليـــة الآداب جامعة الإسكندرية ، المجلد العشرون سنة ١٩٦٦م .

أما الطائفة الأولى فهى : **دولة برغواطة** ، التى نشأت أوّل الأمـــر فى القرن الثانى للهجرة فى إقليم تامسنا أو ما يسمى اليوم بالشـــاوية وهـــى الأراضى التى تبدأ من مكان مدينة الرباط الحالية وتمتد إلى ثغر فضالة الذى كان قاعدة لأسطولها ، وتنتهى عند بلدة أزمور عند مصب وادى أم الربيـــع ويروى ابن الخطيب أن هذه الدولة اتخذت فى بعض الأوقات مدينة " شـــالة " عاصمة لها (١) وهذه المدينة كما هو معروف مدينة قديمة ، مازالت أطلالـــها باقية خارج أسوار مدينة الرباط وقبالة مدينة سلا التى لا يفصلها عنها سـوى وادى أبو الرقراق ، ولذا عرفت بشالة سلا (٢) على أن المؤرخين قد اختلفوا حول اسم برغواطة فبعضهم يرى أنه لم يكن اسماً قبيلة معينة يجمعها أصـــل واحد أو أب واحد بل كان اسماً لأخلاط من البربر اجتمعوا علـــى شـــخص يهودى الأصل ادعى النبوة اسمه : صالح بن طريف بن شمعون البربـــاطى نسبة إلى وادى البرباط فى جنوب الأندلس فصارت كلمة برباطى تطلق على كل من اعتنق ديانته ثم حرفت إلى برغواطى (٣) .. ولقد كذب ابن خلـــدون هذا الرأى وقال : بأن برغواطة قبيلة من المصامدة وأنها امتداد قبائل غمارة المصامدة المجاورين لها وأن ملوكها كانوا من مصامدة المغـــرب ، وليـــس من الأندلس واستند فى ذلك إلى أن الملك والتغلب على النواحى ، والقبـــائل

---

(١) ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ١٨٤ .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ٤٢٢ .

(٣) ابن الخطيب : القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ص ١٨٢ ، دائـــرة المعـــارف الإسلامية ، مادة " برغواطة " .

لا يتم إذا كان الحاكم ينتسب إلى عصبية من قومه (١) وذكر البكرى - وكان معاصراً للدولة البراغواطية واستمد معلوماته عنها مما كتبه سفيرها : أبو صالح زمور البراغوطى عندما وفد على الخليفة الحكم المستنصر بالأندلس فى منتصف القرن الرابع الهجرى تقريباً (٣٥٢هـ) - أن مؤسس هذه الدولة هو طريف بن شمعون الذى نسبت إليه جزيرة طريف ، ولعله يقصد بذلك القائد طريف بن مالك الذى مهد لطارق بن زياد غزو الأندلس بغارته الاستطلاعية على هذه المنطقة الأندلسية الجنوبية المعروفة باسمه إلى اليوم .. ويتابع البكرى قوله : أن طريفاً اعتنق الإسلام ومات على مذهب الخوارج وخلفه على حكم ولاية تامسنا ولده صالح بن طريف فى القرن الهجرى الثانى ، وصالح هذا هو الذى تنبأ فى قومه وشرع لهم ديانته الجديدة باللغة البربرية فزعم أنه صالح المؤمنين الذى ورد اسمه فى سورة التحريم : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ، وزعم كذلك أنه المهدى الأكبر الذى يخرج فى آخر الزمان لقتال المسيح ، وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه ويصلى خلفه ، كذلك ذكر كلاماً كثيراً نسبه إلى موسى عليه السلام . كما شرع لاتباعه صوم رجب وأكل رمضان وفى الوضوء غسل السرة والخاصرتين بالإضافة إلى طريقة الوضوء عند المسلمين وفرض عليهم خمس صلوات فى النهار وخمس صلوات فى الليل ، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود ، وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وعند ابتداء الصلاة يضع الفرد إحدى يديه على الأخرى ويقول بالبربرية : أبسمن ياكش وتفسيره بسم الله ثم :

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢١٠ .

مقر ياكش أى : الله أكبر ويقولون فى تسليمهم بالبربرية : أيحـــن ياكشـــن وورادم ياكش أى . الله أحد لا مثيل له .

وقد وضع صالح بن طريف قرآناً باللغة البربرية فى ثمـــانين ســـورة أكثرها منسوب إلى أسماء النبيين ، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونـــس أما من جهة تعاليمه المختلفة فيبدو أنها من آثار عاداتهم القديمة مثال ذلـــك ، أنه أباح لهم تزوج النساء مما فوق الأربع وأباح لهم الطلاق وحـــرم عليـــهم زواج بنت العم ، كذلك شرع قتل السارق ورجم الزانى ونفى الكـــاذب كمـــا حرم رأس كل حيوان وحرّم ذبح الديك والحوت أى السمك لا يؤكـــل إلا أن يذكى (أى يذبح) والبيض عندهم حرام وليس عندهم آذان ولا إقامة وهـــم يكتفون فى معرفة الأوقات بصياح الديوك ولذلك حرموها .. ويقول صـــاحب كتاب " مفاخر البربر " : أن هذه التعاليم تشبه على حد كبير ديانـــة حـــاميم المفترى فى غمارة (١) ..

" ويذهب بعض المؤرخين المحدثين أمثال نحوم سلوتش فى مقاله عـــن إمبراطورية برغواطة ودفردان فى كتابه عن " مراكـــش " إلـــى أن دولـــة برغواطة كانت يهودية فى أساسها واتجاهها ويســـتندون فـــى ذلـــك إلـــى المؤتمرات اليهودية التى توجد فى ديانتها مثل استعمال كلمة يـــاكش التـــى يرجعونها إلى يوشع النبى اليهودى ، ومثل تربية الشعور على شكل ضفائر ، على أنها عادة متبعة عند يهود بولونيا واليمن ومثل تحريم البيض والاعتقـــاد فى تأثير اللعاب وهى عادة عند يهود طنجة ومثل تقديس الديك وهى عـــادة عند يهود طنجة ومثل تقديس الديك وهى عادة لازالت رواسبها باقيـــة فـــى

---

(١) مفاخر البربر : ص ٧٧ .

المناطق التى كانت فيها برغواطة مثل الشاوية ودكالة حيث يحتفل أهل البادية فى بعض مواسمهم بدفن عظام الديك ومثل الاهتمام بموسى فى تعاليمهم وتقديمه على عيسى هذا إلى جانب أن مؤسس هذه الدولة يهودى الأصل من ولد شمعون (١) " .

ولاشك فى أن هناك تأثيرات يهودية فى ديانة برغواطة ، وإن كانت التأثيرات الإسلامية أكثر وضوحاً حتى أنه يمكننا القول : أنها تقليد للإسلام فى صورة مشوهة ، وطابع بربرى خالص .

وإذا أخذنا فى الاعتبار النتائج التى ترتبت على انتشار مذهب الخوارج فى المغرب من ظهور نزعات قومية استقلالية ، كان ظهور بعض المتطرفين الذين اتجهوا اتجاهاً دينياً استقلالياً عن الإسلام أمراً متوقعاً .

يقول الرحالة البغدادى ابن حوقل (٢) وقد زار المغرب فى القرن الرابع الهجرى " وكان صالح بربرى الأصل ، مغربى المولد ، ضليعاً بلغة البربر غير لسان من ألسنتهم فدعاهم إلى الإيمان به ، وذكر أنه نبى ورسول مبعوث إليهم بلغة البربر واحتج بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ وأن محمداً عربى اللسان مبعوث إلى قومه ثم يضيف ابن حوقل " وفيهم أى البراغواطيين من يفهم القرآن ويحفظ منه السور إلى الآن ويتأول لآياته الموافقة لكتابهم وقراءتهم " " وكيفما كان الأمر .. فإن هؤلاء البراغواطيين كانوا فى نظر المسلمين مجوساً منحرفين مارقين عن الدين

---

(١) د . أحمد العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك (صورة الأرض) ، جـ٢ ص ٥٦ -٥٧ ط ليدن سنة ١٨٧٣م .

الحنيف ولهذا فرضوا قتالهم واستحلوا دماءهم ، وتجمع المصادر التاريخية على أن جميع الملوك والحكام الذين تداولوا حكم المغرب قبل مجيء المرابطين كالأدارسة والأمويين والفاطميين والزبيريين والزناتيين قد جاهدوا برغواطة وأنزلوا بها هزائم منكرة وخسائر فادحة حتى أنه ليخيل إلى القارئ أنه قد قضى عليها تماماً ولكننا مع ذلك نجد أن برغواطة ظلت باقية مستقلة بل كان خطرها يزداد شدة وحدودها تزداد اتساعاً على حساب المسلمين المجاورين لها " (١) .. فترغم أهالى البلاد والمدن ما بين سلا وماسة على التدين بديانتها بعد أن تسفك الدماء وتخرب البلاد ، كما توسع حدودها الجنوبية وتمدها إلى طول سواحل المحيط الأطلسى حتى تشمل أقاليم دكالة وعبده جنوبى آسفى ونواحى مراكش .

وقد روى " ابن الزيات التادلى " : أن يعلى الراجراجى ، الذى بنى " رباط شاطر " ، كان يقاتل كفار برغواطة ، وأنه غزاهم عدة مرات " .. وهذا النص يبين أن رباط شاكر كان مركزاً حربياً لجهاد برغواطة التى امتدت حدودها جنوباً إلى نواحى مراكش ، وما يقال عن " رباط شاكر " يقال أيضاً عن رباطات : ماسة وفوز ونفيس التى انتشرت على سواحل هذه المنطقة الجنوبية . (٢)

وذكر صاحب كتاب " مشاهير أعيان فاس " : أن البراغواطيين - فى أوائل القرن الخامس الهجرى كانوا يعيثون فساداً فى بلاد السوس وسجلماسة

---

(١) د . أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٠٥ .

وأن الملثمين اللمتونيين خاضوا معهم فى تلك الأماكن معركة فاصلة سموا على أثرها بالمرابطيين .

وكذلك يذكر ابن حوقل أن أمير سجلماسة " تافيلالت الحالية " محمد ابن الفتح بن مدرار الذى رفض مذهب الخوارج وتلقب بالشاكر لله قد أخذ يدعو قومه إلى جهاد برغواطة فى منتصف القرن الرابع الهجرى إلا أنه لم يصل إلى غرضه لأن الفاطميين أسروه ثم قتلوه عندما استولوا على سجلماسة بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٤هـ . (١)

إلى هذا الحد وصل الخطر البرغواطى فى النواحى الغربية الجنوبية من الحدود أما النواحى الشمالية .. فقد تغلغل هذا الخطر إلى قرب مدينة الرباط الحالية ، ولقد كانت هذه المدينة - كما يتضح من اسمها - رباطاً لجهاد برغواطة ، يقول ابن حوقل : " ومن وراء سبو إلى ناحية بلد برغواطة على نحو بريد وادى سلا إليه ينتهى سكنى المسلمين وهى رباط يرابط فيه المسلمون وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة (يعنى شالة) قد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها وربما اجتمع فى هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون وينقصون ورباطهم على براغواطة وهى قبيلة من قبائل البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التى انتهت عمارة بلد الإسلام إليها . (٢)

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٥ .

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ، صورة الأرض جـ٢ ص ٥٦ ، ط ليدن ١٨٧٣ .

وإذا كان ابن حوقل جعل مدينة الرباط حدا فاصلاً تنتهى عنده عمارة الإسلام فإن ابن الخطيب ذكر : أن البراغوطيين اتخذوا من " شالة " عاصمة لهم فى بعض الأوقات . (١)

كما أن المولى عبد الرحمن زيدان فى كتابه : إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، ذكر : أم أمراء برغواطة قد امتد نفوذهم إلى شمال الرباط وأنهم استولوا على مدينة العمورة (المهدية حالياً) من أيدى بنى يفران الزناتيين حكام سلا وأنهم خربوها فيما خربوه من المدن . (٢)

وإذا صعدنا شمالاً إلى منطقة سبتة وطنجة نجد أن هذه البلاد كان يحكمها بعض مماليك الحموديين الذين كانوا فى الأصل من سبى برغواطة ثم ولاهم الحموديون بعض أعمالهم ، فى سبتة فانتهز أحدهم واسمه ستوت أو سواجات البرغواطى فرصة ضعف الحموديين واستبد بحكم سبتة وعين ولده الحاجب ضياء الدولة على طنجة وطرد الحموديين من هذه المنطقة ولم تلبث قبائل غمارة أن دانت له بالطاعة . (٣)

ويتساءل الدكتور : العبادى - ونحن معه - عما إذا كانت ثمة علاقة بين هذه الإمارة البرغواطية الشمالية وبين دولة برغواطة التى كانت فى جنوبها ؟ ثم يجيب على هذا التساؤل بأن : النصوص القليلة فى هذا الصدد تربط بين هاتين الدولتين وتؤكد وجود اتصال بينهما .. من هذه النصوص ، قول صاحب كتاب مفاخر البربر : " وكان ظهور برغواطة فى سنة ١٢٥هـ

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ١٨٤ .

(٢) عبد الرحمن زيدان : إتحاف أعلام الناس جـ٢ ص ٧٢ ، الرباط سنة ١٩٣٠م .

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر جـ٦ ص ٢٢١ .

فى خلافة هشام بن عبد الملك ولم يزل الملك فيهم إلى أول ظهور الملثميـــن وخروجهم من الصحراء وآخر ملوك برغواطة هو الحـــاجب الـــبرغواطى ضياء الدولة صاحب سبتة وطنجة " . (١)

كذلك يقول ابن خلدون حين يصف شعوب تلك المنطقـــة : " ويعضـــد ذلك اتصال مواطن غمارة بمواطن برغواطة من شعوب المصـــامدة علـــى ساحل البحر الغربى وهو المحيط " . (٢)

ويتابع الدكتور العبادى : أن كل هذا يفهم منه أنه كان هناك اســـتمرار أو اتصال سياسى بين الدولتين وإن كنا نشك فى أن يكون سقوت البرغواطى وزملاؤه قد اتبعوا ديانة برغواطة المارقـــة بحكـــم اتصالـــهم بـــالحموديين الأشراف الأدارسة منذ صغرهم ، وقد يؤيد ذلك ما رواه ابن عذارى مـــن أن سقوت البراغوطى طلب من أبى الوليد بن جهور أمير قرطبة قارئا للقـــرآن فعلق ابن جهور على هذا الطلب بقوله : " جاهل يطلب قارئاً " ..

ثم وجه إليه قارئاً من طلبة قرطبة اسمه عون الله بن نـــوح (٣) فـــهذه العبارة وإن كان فيها شئ من الاحتقار بشخصية سقوت إلا أنها تنكر كونـــه مسلماً . ولكن على الرغم من ذلك فإن معظم المؤرخين قد أجمعوا علـــى أن سقوت البراغوطى كان رجلاً مفسداً على غرار أسلافه الـــبراغواطيين وأن أساطيله قد عانت فساداً فى مضيق جبل طارق وأضرت بمصالح المســـلمين فى منطقة العدوتين ومثال ذلك قول ابن بسام : " .. من رجل استعان بالشـــر

---

(١) مفاخر البربر ، نشر ليفى بروفنسال ص ٤٧ .

(٢) ابن خلدون : كتاب العبر جـــ٦ ص ٢١٠ – ٢١١ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـــ٣ ص ٢٥٠ ، نشره بروفنسال ، باريس ١٩٣٠ .

وتهاون بالأمر لاسيما فى البحر فإنه أحزم بلججه نارا ، ولقى ريحه إعصارا أخذ كل سفينة غصبا وأضاف إلى كل رعبا فضجت منه الأرض والسماء والتقت الشكوى عليه والدعاء إلى أن أذن الله لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين .. " .

ويستنتج الدكتور العبادى مما تقدم : " أن المغرب فى هذه الفترة التى سبقت مجيء المرابطين كان يعانى محنة كبيرة من جراء هذه الدولة البراغواطية التى يبدو أن خطرها كان أشد وأقوى مما تصوره كتب التاريخ خصوصاً بعد أن تبين لنا اتصالها وتعاونها مع قبائل غمارة فى جبال الريف " . (١)

وأما **الطائفة الثانية فهى : القبائل الزناتية** التى حكمت المغرب قبل المرابطين وهى قبائل : مكناسة مغراوة وبنى يفران .. وغيرها .. وكانت فى نظر المؤرخين - بعد زوال الأدارسة - هى القوى الشرعية الحاكمة فى المغرب باعتبار أنها كانت سنية مسلمة .

وبملاحظة المناطق التى استقرت فيها تلك القبائل نجد أنها كانت تكاد تضرب حصارا حول برغواطة .. وقامت بدور فعال فى جهادها بالرغم مما كان بينها من عوامل النزاع والمنافسة .

ومن أهم تلك المراكز الزناتية :

" فاس " وتحكمها مغراوة ، وتادلا ويحكمها بنو يفران ، وأغمات وتحكمها مغراوة وإمارة سلا وكان يحكمها بنو يفران .. وكانت تلك الإمارة

---

(١) د . أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

فى أيام أميرها : أبى الكمال تميم اليفرانى - فى أوائل القرن الخامس الهجرى - من أشد الإمارات وطأة على برغواطة ، يروى صاحب القرطاس والسلاوى الناصرى : " .. كان أبو الكمال تميم اليفرانى مستقيماً فى دينه مولعاً بجهاد برغواطة ، كان يغزوهم مرتين فى السنة إلى أن توفى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وفى سنة اثنتين وستين وأربعمائه قتل ابنه فى حرب لمتونة فجاءوا به ليدفنوه إلى جانب قبر أبيه تميم فسمعوا من قبره تكبيراً وتشهدا كثيراً فنبشوا قبره فألفوه لم يتغير منه شئ ثم رآه البعض من قرابته فى النوم فقال له : ما هذا التكبير والتشهد الذى سمعناه من قبرك قال : تلك الملائكة وكلهم الله بقبرى يكبرون ويهللون ويسبحون ويكون ثواب ذلك لى إلى يوم القيامة قال : وبم ذلك ؟ قال : بجهادى برغواطة (١) .

" .. وهذه الرواية وأن كانت تتسم بطابع قصصى ، إلا أنها تبين أن حرب برغواطة كانت فى نظر المسلمين واجباً دينياً وجهاداً فى سبيل الله " . (٢)

ولقد كانت برغواطة - برغم تلك الجهود المتتابعة للقضاء عليها - هى الأقوى حتى أصبح الأمر يتطلب قوة أكبر وأجدر لتحقيق هذا الهدف .

وأما الطائفة الثالثة فهى : طوائف الشيعة الرافضة والوثنيين فى الجنوب ، وهى أقليات مبعثرة استقلت بحكم بعض النواحى فى بلاد السوس ، فالشيعة انتشروا فى مدينة تارودانت ونواحيها وكانوا يعترفون باسم

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس جـ١ ص ١٧١ - ١٧٢ ، السلاوى : الاستقصا جـ١ ، ص٢٢١ .

(٢) د . أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلسى ، ص ٢١٠ .

البجليين ويقول صاحب القرطاس وكذا السلاوى أن هـؤلاء الشـيعة كـانوا اسماعيلية وأنهم ينتسبون إلى على بن عبد الله البجلى الرافضى الذى نـزل بلاد السوس أيام حركة الخليفة عبيد الله المهدى بإفريقية وهناك فـى بـلاد السوس نشر مذهب الرافضة وتوارثوه عنه جيلا بعد جيل (١) .

لكن بن حوقل والادريسى يذكران أن هؤلاء الشيعة كانوا موسـوية أى اثنا عشرية ، ويقولون بأمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ولا يعـترفون بإمامة أخيه إسماعيل إمام الاسماعيلية ، ويضيف ابـن حوقـل أن هـؤلاء الشيعة كانوا ينتسبون إلى رجل يدعى محمد بن ورصند البجلى وأنهم كـانوا على عداء مع جيرانهم المالكية فى السوس وأن القتال والثأر متصل بينـهم ليلا ونهارا، وأنه كان لهم مسجد واحد يصلى فيه الفريقان فرادى فإذا صلـى هؤلاء أتوا هؤلاء وهكذا ، ثم يصف ابن حوقل طباع هؤلاء القـوم سـواء أكانوا مالكية أو موسوية فيرميهم بالجهل والجفاء وغلظ الطبع .. إلخ " . (٢)

وللبكرى وابن حزم رواية تناقض تلك الروايات السابقة مـن حيـث المذهب فيقولان بأن هذه الطائفة كانت تنسب إلى رجل من أهل نفطـة مـن أعمال قفصة جنوبى تونس يسمى الحسن بن على بن ورصند البجلـى ، وأن هذا الرجل رحل إلى بلاد السوس قبل وصول أبى عبد الله الشيعى الداعـى إلى إفريقية وأن مذهبه كان شبيهاً بمذهب الروافض إلا أنه كان يقـول بـأن

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس جـ٢ ص ٢١ ، السلاوى : الاسـتقصا جـ٢ ، ص١٣ .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٦ - ٦٦ ، الادريسى : وصف إفريقية من كتـاب نزهة المشتاق ص ٣٩ الجزائر سنة ١٩٥٧م .

الإمامة لا تكون إلا فى سلالة الحسن بن على بن أبى طالب وليس الحسين كما تقول الإسماعيلية والاثنا عشرية ولهذا كانت إمامة البجليين فى سلالة الأدارسة وقد رماهم بن حزم بالكفر والإلحاد (١) ، وينفرد الرحالة المقدسى برواية خاصة سمى فيها هذه الطائفة بالإدريسية وقال : أن مذاهبهم كانت قريبة من مذهب القرامطة ثم ربط بين المعتزلة والشيعة وقال : أنهم جميعاً يقولون بمذهب الإسماعيلية (٢) .

وبرغم اختلاف المؤرخين فى تحديد مذهب هذه الطائفة ، إلا أنهم متفقون جميعاً على أنهم – أى البُجلَيِّن – من روافض الشيعة وأنهم أعداء للمذهب السنى فى المغرب .

ويجب ألا نغفل تلك العناصر الوثنية التى كانت تقيم فى بعض جهات الجنوب .. إذ يذكر البكرى : أنه كانت هناك قبيلة مجاورة للبجليين تقيم فى جبل بنواحى الأطلس الكبير وكان أفرادها يعبدون الكبش ويتسترون عند دخول الأسواق (٣) ، ولما كان الكبش يمثل إلهاً فى مصر الفرعونية يسمى

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٦١ ، الجزائر سنة ١٩١١م ، ابن حزم : كتاب الملل والنحل جـ٤ ص ١٨٢ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٣٨ ، وقد أشار اليعقوبى والإدريسى إلى أن مملكة الأدارسة كانت موطناً للاعتزال وأن قبيلة أوربة التى ساندت المولى ادريس كانت تدين بالاعتزال راجع : دكتور أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١١ ، ٣١٢ وكذا مقالة : (الموحدون والوحدة الإسلامية) مجلة التربية الوطنية المغربية العددان ١ ، ٢ سنة ١٩٦٢م .

(٣) الكبرى : ص ١٦١ .

بالإله خنومَ ، فإن ذلك يجعلنا نتساءل عما إذا كانت هذه العبادة من رواسب مؤثرات مصرية قديمة ؟

ونأتى للطائفة الرابعة وهى : قبائل غمارة التى كانت فرعا من قبائل مصمودة ، والتى انحرف عدد كبير منها عن الإسلام فى القرن الرابع الهجرى وظهر فيهم متنبئون مشعوذون ، كما قصدتهم الخوارج للاحتماء فى جبالهم وكانوا يسكنون جبال الريف بحذاء البحر المتوسط من نواحى سبتة وطنجة غربا إلى وادى نكور بالقرب من الحسيمة الحالية شرقا وتمتد بلادهم جنوبا إلى قرب فاس ، يقول ابن خلدون : " كان غمارة هؤلاء عريقين فى الجاهلية بل الجهالة والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير وتنبأ فيهم إنسان يعرف بحاميم ولقب بالمفترى ، وفى رواية أخرى بالمقتدى ولعلها هى الأصل ثم حرفت إلى المفترى والجبل الذى تنبأ فيه ينسب إليه وهو جبل حاميم على مقربة من تطوان وأجابه بشر كثير من غمارة وأقروا بنبوته ووضع لهم شريعة استهواهم برخصها فرد لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها ووضع لهم قرآناً بلسانهم (أى البربرية) ومن تعاليمه أنه أحل لهم أكل أنثى الخنزير وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء وحرم عليهم الحوت حتى يذكى وحرم بيض كل طائر .. " (١) .

ويذكر ابن خلدون أيضاً : " أن هذا المتنبئ قد قتل فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى فى حروب له مع قبائل مصمودة " (٢) ..

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢١٦ .

(٢) ابن خلدون : الصبر جـ٦ ص ٢١٠ - ٢١١ .

وقيل : " أنه قتل فى حروب مع جيوش الخليفـــة الأمـــوى عبـــد الرحمـــن الناصر " (١) .

وبتتبع ما ذكره المؤرخون فى هذا الصدد نجد أنه على الرغـــم مـــن القضاء على هذا المفترى فى القرن الرابع الهجرى فقد استمرت فى غمـــارة بقايا بدعه وضلالاته ، حتى مجيء المرابطين فى القرن الخامس الـــهجرى فالبكرى يذكر : أن أحد أولاد حاميم واسمه عيسى كان لا يزال مبجلاً فـــى قومه غمارة ، وأن الإباحية بين النساء كانت مطلقـــة وأن رجالـــهم كـــانوا يطيلون شعورهم كالنساء ويتخذونها ضفاير ويطيبونها ويتممون بـــها (٢) . وابن خلدون يشير إلى متنبئ آخر ظهر فى غمارة بعد حاميم اسمه : عـلصم ابن جميل البردعوى (٣) .

يتضح لنا مما تقدم : " أن المغرب فى ذلك العهد كان يعانى محنة دينية وسياسية خطيرة وأنه كان فى حاجة إلى معجزة تنقذه مـــن هـذا الموقـف العصيب ، وهنا يأتى دور المرابطين ، ولاشك أن المرابطين كانوا على علم تام بخطورة الحالة فى المغرب ولاسيما بخطورة برغواطة ، أقـــوى دولـــة طائفية فى ذلك الوقت وكان شيخ المالكية بالقيروان أبـــو عمـــران الفاســـى حينما رسم خطته لقيام دولة الملثمين مع زعيمهم يحيى بن إبراهيم الجدالـــى أوصاه بحرب برغواطة بصفة خاصة وقد يؤيد ذلك أيضاً أن الفقيـــه الـــذى

---

(١) مفاخر البربر : ص ٧٧ .

(٢) البكرى : المغرب ص ١٠٠ - ١٠٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـــ٦ ص ٢١٦ ، وراجع أيضاً د . أحمد مختار العبادى : فـــى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٩ .

اختير لمهمة هداية الملثمين وتوحيد صفوفهم وهو عبد الله ابن ياسين كـــان على علم تام بأحوال برغواطة قبل دخول الصحراء " . (١) وقد وصف ابـن عذارى رحلة هذا الفقيه فى بلاد المغرب وصفاً مدعماً بالأرقام وأغلب الظـن أنها كانت رحلة استطلاعية تتعلق بالمهمة التى وكلت إليـــه ، يقـول ابـن عذارى : " ثم نزل عبد الله بن ياسين بلاد المغرب الأقصى فمـــر يتامسـنا فوجد فيها أمما لا تحصى أكثرهم تحت أمراء البرغواطية ، وكـان عسـكر أمراء برغواطة ، وكان عسكر أمراء برغواطة أكثر من ثلاثـــة آلاف ثـم ضمّ إليهم من سائر القبائل ما بين فارس وراجل ما يزيد علَى عشرين ألفـاً من جراوة وزغارة ومطفرة والبرانس وركونة وغيرها (٢) " .

ويشير صاحب القرطاس كذلك إلى اهتمام المرابطين بأمر برغواطـة فيقول : " فلما علم عبد الله بن ياسين بحال برغواطة وما هـم عليـه مـن الضلال رأى أن الواجب الدينى يقتضى تقديم جهادهم على غيرهم " (٣) .

وذكر لسان الدين بن الخطيب أيضاً : " أن أمر اللمتونيين قـد ظـهر ودعوتهم راجعة إلى أساس من فقه ودين فجعلـوا مـن برغواطـة جـهاداً قريباً " (٤) .

---

(١) د . أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١٣ .

(٢) المرجع السابق : نقلاً عن ابن عذارى ، البيان المغرب أو البيان المرابطى ، قطعـة خاصة بتاريخ المرابطين ، نشر المستشرق الأسبانى ميراندا .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس جـ٢ ص ٢٧ .

(٤) ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ١٧٦ .

مما تقدم من نصوص يتضح : أن المرابطين كانوا أصحـــاب رســالة سامية وأن خروجهم من الصحراء كان مرسوماً وفق خطة موضوعة تقـــوم على القضاء على أهل الزيغ والضلالة من البرغواطيين وغيرهم .. كذلـــك كان للمرابطين إلى جانب هذا سياسة إصلاحية لم تلبث أن ظهرت نتائجـــها واستقرت أوضاعها فى المغرب منذ بداية دولتهم إلى يومنا هـــذا .. وهـذه السياسة تقوم على عدم السماح بتعدد المذاهب الدينية التى انتشـــرت بشـــكل ملحوظ فى المغرب كالخوارج والشيعة والمعتزلة والحنفية والمالكية مما جعل البلاد عرضة للفتن والخلافات المذهبية ، ولما كان المغرب كالأندلس يعتـــبر ثغرا للإسلام فى أقصى الغرب فقد حرص المرابطون على الاكتفاء بسياســـة المذهب الواحد وهو المذهب المالكى الذى قامت عليه دولتهم فتمســـكوا بـــه واتخذوه أساساً فى كل ما يرجعون إليه من أمور دينية ودنيوية وكان الأندلس قد سبق المغرب فى هذا المضمار منذ أيام هشام بن عبد الرحمن الأموى فى القرن الهجرى الثانى " (١) .

" ويرون المقدسى فى هذا الصدد أن فريقين مـــن الحنفيـــة والمالكيـــة تناظرا يوماً بين يدى السلطان فقال لهم : من أين كان أبو حنيفـــة ؟ قـــالوا : من الكوفة ، فقال ومالك ؟ قالوا : من المدينة ، قـــال : عـــالم دار الـــهجرة يكفينا ، فأمر بإخراج أصحاب أبى حنيفة وقال : لا أحب أن يكون فى عملـــى مذهبان ..

ولاشك أن هذه السياسة قد حفظت لهذه الثغـــور الإســـلامية ســـلامتها ووحدتها الروحية فكانت لذلك درعاً حامياً للإسلام فى أقصى الغرب .. ومن

---

(١) د . أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١٥ .

الطريف أن الممالك المسيحية التى كانت متاخمة للمسلمين فى هذه المنطقة وأعنى بها أسبانيا قد اتبعت هى الأخرى سياسة المذهب الدينى الواحد باعتبارها هى الأخرى ثغرا للمسيحية فى هذه المنطقة فاقتصرت على المذهب الكاثوليكى وتعصبت له حتى ضرب بها المثل فقيل : أنها أكثر تعصبا البابوية أى للكاثوليكية من البابا نفسه ، وهذه العبارة تذكرنا بموقف أهل الأندلس من المذهب المالكى عند قول المقدسى على لسانهم " وهم يقولون ولا نعرف ألا كتاب الله وموطأ مالك " (١).

نشأة الدولة

صنهاجة :

يتكون البربر – كما هو معلوم – من قسمين عظيمين ، هما : البتر والبرانس ، ولا يعرف مصدر هذا التقسيم ، وعلى العموم فالبرانس أكثر تحضراً من البتر ولكل منهما مميزاته فى التاريخ على الأقل ، فالبتر مذ كانوا وهم أحلاف الفاتحين ، والبرانس كانوا أميل إلى الشيعة والعلويين ، سواء فى أفريقية أو المغرب وأهم قبائل البتر زناتة ولواتة ومطغرة ومديونة ومن أهم قبائل البرانس صنهاجة وأوربة ومصمودة وكتامة وأكثر هذه القبائل أهمية فى تاريخ المغرب هى زناتة من البتر وصنهاجة ومصمودة من البرانس وقد شغلت صنهاجة أجزاء شاسعة من شمالى أفريقيا ، فاستقرت بالقطر التونسى وبالجزائر فيما بين مسلية وميلة شمالا ، وبالمغرب فى منطقة الريف إلى جانب مصمودة كما استوطن قسم منها بالأطلس المتوسط

---

(١) د . أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١٥ .

وساحل المحيط الأطلسىوقد ضربت فى الصحراء الكبرى حتى نهر النيجـــر ونهر السنغال حيث أقام الملثمون رباطهم . (١)

الملثمون :

يكون الملثمون قسماً عظيماً مـــن صنهاجـــة الصحـــراء ، ويؤلفـــون مجموعة متعددة من القبائل التى تكونت منها دولة المرابطين ، ومـــن أهـــم قبائل الملثمين جزولة ولمطة وجدالة ومسوفة ودكالة وهسكورة ولمتونـــــة ، وانتهت زعامة الملثمين إلى لمتونـــة التـــى كـــانت الرياســـة فيـــها لبنـــى ورتنطق .

كانت صنهاجة تضرب فى سهول الشمال الأفريقى قبل القرن الثـــالث للميلاد ثم بدأت قبائل عديدة منها تتجه نحو الصحراء الكبرى بعد أن شـــاع استخدام الإبل على يد الرومان الذين جلبوها من بلاد العرب وساعد الجمـــل هذه القبائل التى أصبحت صحراوية بحكم البيئة على تحمل صعوبات الطبيعة والتنقل حيث توجد الواحات . والواقع أن اندفاع الملثمين نحو الشـــمال فـــى القرن الخامس لم يكن إلا رجوعاً إلى مساقط رؤوس أجدادهم بالإضافة إلـــى القيام بمهمتهم الدينية السامية ، وعلى كل حال ففى هذا القرن ، كانت قبـــائل الملثمين تمتد فى جنوب المغرب إلى ناحية سجلماسة ثم تتحدر إلـــى نـــهرى النيجر والسنغال وأكد بعض الباحثين الصلة بين قبـــائل الطـــوارق الحاليـــة والملثمين القدماء ولاحظ – بالاعتماد على مراجع قديمة ومعاصرة – أن اسم الطوارق مشتق من " ترغة " التى هى إحدى قبائل الملثمين ، كما لاحـــظ أن

---

(١) ابن خلدون جـــ٦ ص ٢٠١ .

الطوارق مازالوا يحتلون نفس البقاع التى كان يحتلها الملثمون مع العِلْم بـــأن السلطة فى قبائل الملثمين قد انتقلت إلى ترغة بعد سقوط دولة المرابطين .

والصلة جلية كذلك بين الطوارق والملثمين القدماء فيما يرجـــع إلـــى طريقة المعيشة والاعتماد على الإبل فى التنقل والصفات الجسمية واستعمال اللثام (١) . كانت لمتونة – وقد انتهت إليها زعامة الملثمين – تسكن ما بيـــن جنوبى المغرب والسودان ، فى تلك المنطقة التى كانت تســـمى منـــذ أيـــام الرومان إقليم " موريتانيا " وكانت تؤثر حياة القفر على أيـــة حيـــاة أخـــرى " انتباذا " عن العمران واستئناساً بالانفراد وتوحشاً بالعز من الغلبة والقـــهر " وكانوا يعتمدون فى قوتهم على لحم الإبل ولبنها ، ولا يعرفـــون حرثـــاً ولا ثماراً ولا يأكلون الخبز وكان شعارهم " اللثام " ومن ثم فقد عرفوا "بالملثمين" وقيل فى سبب ذلك أنهم يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجـــاب أو لأنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبـــات حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال ، وقيل بل كانوا يقلدون فى ذلـــك قبيلـــة حمير التى يدعون الانتساب إليها . (٢)

وذكر أبو عبيد البكرى فى معجمه " المسالك والممالك " : أن جميـــع قبائل الصحراء يلتزمون ، النقاب ، وهو فوق اللثام حتى لا يبـــدو منـــه إلا محاجر عينيه ، ولا يفارقون ذلك فى حال من الأحوال ، ولا يميز رجل مـــن وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب وكذلك فى المعارك إذا قتل منهم القتيل ونـــزل

---

(١) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، المجلد الأول ص ١٦٥ ، الدار البيضـــاء ، سنة ١٩٦٥م .

(٢) السلاوى : الاستقصا جـــ١ ص ٩٨ ، ٩٩ .

قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم (١) .

وذكر ابن خلكان : أن الملثمين كانوا يهاجمون من طرف أعدائهم فقعد الرجال ذات يوم ملثمين بزى النساء ، وأبعد هؤلاء عن الحى حتى قدم الأعداء فنهض إليهم الملثمون فبطشوا بهم .

ومن الملاحظ أن الطوارق - الذى قيل أنهم يتصلون بالملثمين القدماء - لا ينزعون اللثام مطلقاً وإذا أرادوا نزعه اختفوا عن عيون الناس وأشرافهم يرتدون اللثام الأسود بينما يلثم العبيد بالبياض .

تقدم أن الرياسة فى الملثمين انتهت إلى لمتونة وهذه القبيلة كانت تستقر بإقليم " موريتانيا " . وهم من البدو المستقرين وقربهم من مناطق الحضارة فى المغرب جعلهم يحتلون مقاما مرموقا بين الملثمين فيمدون أقرباءهم من قبائل الملثمين بإنتاج واحاتهم الغنية نسبياً ويسيطرون على تجارة الإبل والماشية فى هذا الجزء من الصحراء الجنوبية كانوا كسائر القبائل البربرية تدين بالمجوسية واستمروا على ذلك حتى ذاع بينهم الإسلام عقب فتح الأندلس .

وقد وطئ عقبة بن نافع أراضى الملثمين على ما يظهر فى بعض روايات المؤرخين القدماء كابن خلدون وبعض المعاصرين الذين أكدوا وصول فتوحاته إلى غانة ، وعلى كل حال فإن الإسلام لم ينتشر بينهم إلا

---

(١) أبو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب المستخرج من كتاب (المسالك والممالك) بعناية المستشرق دى سلان ص ١٧٠ ، الطبعة الثانية .

منذ القرن الثالث وبدأت رياستهم تتخذ – من ذلك الحين – نوعاً من الملـك ، ومن المعلوم أن قبيلة ترغة كانت ضمن منطقة نفوذ عمر بن إدريس الثـانى ويرجع الفضل فى إسلام السودان إلى لمتونة (١) منذ القرن الثالث نفسه وقـد أصبحت رياسة الملثمين فيهم منذ أيام عبد الرحمن الداخل .

فى أواسط القرن الثانى الهجرى كان ملكهم يدعى تيولوثان بن تيكـلان الصنهاجى اللمتونى فبسط سلطانه على سائر نواحـى الصحـراء وحـارب القبائل الوثنية ونشر الإسلام بين كثير منها وفرض الجزية على سائر ملـوك السودان المجاورين وكانت مملكته بالصحراء مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلـها ولما توفى سنة ٢٢٢هـ خلفه فى الرياسة حفيده الأثر بن بطين بن تيولوثـان واستطال حكمه زهاء خمسة وستين عاماً حتى وفاته فى سنة ٢٨٧هـ فخلفه ولده تميم واستمر فى الحكم إلى أن ثار عليه فى سنة ٣٠٦هـ أشياخ قبيلـة صنهاجة وقتلوه وعندئذ افترقت كلمة الجماعة وانقسموا شيعاً واستمروا دون رياسة جامعة زهاء مائة وعشرين عاماً ، إلى أن قام فيهم الأمير أبو عبد الله محمد بن تيفاوت اللمتونى المعروف بتارسنا فالتفوا حوله واجتمعـوا علـى رياسته وكان أميراً ورعاً شغوفاً بالجهاد فلم يطل أمد حكمـه سـوى ثلاثـة أعوام إذ استشهد فى غزوة من غزواته ضد بعض قبائل السـودان الوثنيـة فولى من بعده صهره الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالى زعيم قبيلة جدالـة أو كدالة وهى شقيقة لمتونة يجمعهما أب واحد واستمر على رياسته لصنهاجـة وقيادتها فى حروبها ضد أعدائها حتى سنة ٤٢٧هـ ، وكـان يحيـى هـذا

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٧١ .

متعطشاً إلى علوم الدين التى حرم منها هو وقومه فى هذه البقاع الصحراوية فأراد أن يسعى إلى طلب العلم والوقوف على أصول الدين الإسلامى فى مدارس القيروان وفاس والاستزادة من العلوم الدينية فخرج من بلاده فى سنة ٤٢٧هـ . بعد أن استخلف عليها ولده إبراهيم بن يحيى ، للحج أولاً ثم لارتياد المراكز الثقافية فى المغرب بحثاً عن فقيه يتولى توجيه قومه توجيهاً دينياً سليماً فلما عاد من الحج نزل بالقيروان وهنالك التقى وصحبه بالفقيه أبى عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى يومئذ وتأثروا بوعظه وشكا إليه يحيى من جهل قومه وطلب إليه أن يختار له فقيهاً من تلاميذه ، يتولى تعليم قومه وتثقيفهم بتعاليم الإسلام الصحيحة ، ولما لم يجد أبو عمران من تلاميذه بالقيروان من يقبل تلبية هذه الدعوة لبعد مواطن لمتونة عن بلادهم بعث معه كتاباً إلى تلميذ من تلاميذه بالسوس الأقصى يدعى أبو محمد وجاج بن زللو اللمطى وهو فقيه بربرى يكرس حياته لهذه الرسالة السامية وكان يدرس العلم لتلاميذه فى رباط خاص أنشأه لذلك ببلدة نفيس من بلاد السوس ، وما أن تلقى وجاج رسالة أبى عمران حتى انتدب ليحى بن إبراهيم طالباً صنهاجى الأصل من جزولة ، من أهل الدين والفقه والتقوى يعرف باسم عبد الله بن ياسين الجزولى ، ولم يتردد ابن ياسين فى قبول هذه المهمة إذ اعتبرها من صميم رسالته فى الجهاد ونشر تعاليم الإسلام الصحيحة بين سكان هذه النواحى الذين حُرِموا من نعمة المعرفة والعلم .

وكان ابن ياسين من أنبه تلاميذه وأكثرهم علما وورعا وكان قد رحل إلى الأندلس وأنفق فيها بضع سنين يدرس فى ظل الطوائف فزاد علماً

وتجربة فسار مع يحيى إلى الصحراء فاغتبطت بمقدمـــه لمتونـــة وكدالـــة واستقبلوه بمنتهى الحفاوة والتكريم (١) .

عبد الله بن ياسين :

كان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع ، والغيرة على تعاليم الإسلام وكان فوق ذلك خطيباً موهوباً قوى التأثير ، فأخذ يبث تعاليم الدين بين أولئك البدو الصحريين ، ويبصرهم ويأمرهم بالمعروف، ويناههم عن المنكر .. وقد بدأ مهمته فى قبيلة لمتونة حوالى سنة ٤٣٠هـ ، فعمد إلى تقويـــم أخلاقـــهم وتطبيق حدود الشريعة وتغيير المنكر ومقاومة الشهوات ومطالبتهم بـــالإقلاع عن تقاليدهم المنافية مثل الزواج بأكثر من أربع وكان من الأمور الشـــائعة بينهم ، وغير ذلك من التقاليد المفرقة كما أخذهم بالصلاة فى وقتها واشتد فى عقاب المجرمين من لصوص وزناة ونحوهم وضرب لهم مثلا فى التقشـــف والقناعة ، فلبس خشن الثياب واكتفى من الطعام بالقليل المتواضع ، فاســتثقل اللمتونيون أن تُحرّم عليهم أشياء كانت شهواتهم لا ترضى بدونـــها وتزعـــم حركة العصيان ضده سيدان وفقيه منهم يدعى الجوهر بن سكن فأشار عليـــه يحيى الكدالى عندئذ باعتزالهم فى رباط يقيمون به للتعبد والتنسك ما بقى من حياتهما إلى جانب سبعة آخرين من كدالة (٢) وقد اختلف المؤرخـــون فـــى تحديد مكان هذا الرباط ، والغالب أنه كان على مصب نهر الســـنغال حيـــث توجد بعرضه جزر صغرى أقاموا رباطهم بإحداها وتسامع الملثمون بانقطاع هؤلاء النساك إلى العبادة فصاروا يتواردون عليهم حتى بلغ عددهم المئـــات

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) السلاوى الناصرى : الاستقصا جـ٢ ص ٨ .

وتقبلوا دعوة ابن ياسين عن طواعية واقتناع وفى هذه الأثناء توفى يحيى بن إبراهيم سنة ٤٤٠هـ .. ويذكر الدكتور عبد العزيز سالم " أنهم مع تبرمهم وتذمرهم من هذه التعاليم فقد احتملوا وجوده رهبة من زعيمهم يحيى بن إبراهيم فلما توفى يحيى بم يستطع خليفته يحيى بن عمر أن يمنع صنهاجه من الاعتزال عن ابن ياسين وترك الأخذ عنه فعزم ابن ياسين على الرحيل ، وقصد بلاد السودان حيث يمكنه أن يؤدى رسالته بين أقوام أقل ضراوة من اللمتونيين الصناهجة (١) " . وأبَا رئيس صنهاجة إلا أن يرافقه ورحل معهما أبو بكر ابن عمر شقيق يحيى بن عمر فنبذوا عن الناس فى ربوة يحيط بها الماء من جهاتها وأسسوا رباطهم هناك ، وكما سبق أن قلنا فإن هذا الرباط كان على مصب نهر السنغال على الأغلب .

والرباط من المرابطة ، أى ملازمة الثغور للجهاد حيث ترابط خيل المجاهدين من قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ فالرباط هو المكان الذى تجتمع فيه الخيل استعداداً لمقاتلة العدو ، وترتبط الكلمة بواجبات الجهاد ، وحينئذ يقصد بالرباط ارتباط الخيل إزاء العدو فى الثغور ومنها جاء تصريف مرابط أى الملازم لثغر العدو أخذا من قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ والرباط هو بناء يجتمع فيه من تفرغ للعبادة من الزهاد والصالحين استعداداً للجهاد فى سبيل الله ضد أعداء الدين ، فهو بناء يجمع بين الصفتين الدينية والحربية ويسمى من يسكنه مرابطاً وقد كان بناء الأربطة من أهم الأعمال التى يقوم بها الأمراء

---

(١) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير جـ٢ ص ٦٩٣ .

والخلفاء فالإسكندرية كانت تعتبر ثغراً من الثغور الإسلامية التى يجاهد فيها المسلمون ، ولذلك قسم عمرو بن العاص أجناده قسمين : قسم أبقاه معه فى الفسطاط ، وقسم وزعه إلى نصفين نصف لرباط الإسكندرية وحدها والنصف الثانى لسائر السواحل وكان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل لمدينة ترابط فى الإسكندرية (١) . كذلك اهتم عثمان بن عفان برابطة الإسكندرية .. " التى كانت من الساحل يضرب ماء البحر حيطانها تسمى المحاريس (٢) " .. كذلك كانت سواحل الشام مزودة بالمحاريس والأربطة المشحونة بالمقاتلة ، وكان معاوية يوجه إلى هذه الأربطة جماعات كثيفة من الجند يشحنها بهم للدفاع عنها إذا ما أغار عليها الروم من جهة البحر .

ولقد اهتم العباسيون ببناء الأربطة على سواحل المغرب اهتماماً كبيراً تسامع بعبد الله بن ياسين كثير من الصالحين والراغبين فى تحصيل العلوم الدينية فتتابعوا عليه ، وأخذوا عنه ولم يمض زمن طويل حتى كان رباط ابن ياسين يضم نحو ألف رجل وقد أخلص له هؤلاء الرجال وأطاعوه طاعة عمياء وعرفوا بالمرابطين نسبة إلى رباط ابن ياسين الذى تلقوا فيه تكوينهم الروحى والحربى وحولهم من رعاة جمال إلى طبقة من المجاهدين .. فهم أهل الرباط الذين آلوا على أنفسهم منذ انضمامهم إلى ابن ياسين التفانى فى

---

(١) جلال الدين السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جـ١ ص ٧١ ، ط مصر سنة ١٣٢٧هـ

(٢) ابن رسته : كتاب الأعلاق النفيسة جـ٧ من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ، ١٨٨١ ، ص ١١٨ .

سبيل النهى عن المنكر وقيل أنهم سموا بالمرابطين لشدة صبرهم وحسن بلائهم وعرفوا أيضاً بالملثمين لاتخاذهم لثاماً داكن اللون يغطى الجزء الأدنى من وجوههم ، كما عرفوا باللمتونيين ، نسبة إلى قبيلة لمتونة التى كانت تتولى الرئاسة على سائر قبائل صنهاجة الضاربة فيما وراء الرمال الصحراوية جنوبى جبال درن .

وكان ابن ياسين يفرض على من يخالف تعاليمه عقوبات رادعة ولذلك فإن تعاليم المرابطين تشبه إلى حد كبير تعاليم الخوارج الأباضية وقد استطاع ابن ياسين فى أمد وجيز أن يؤلف جيشاً محارباً جعل على قيادته صاحبه يحيى بن عمر وكان يحيى مخلصاً لدعوته متفانياً فى الطاعة له وهكذا كون ابن ياسين جيشاً قوياً ، وعند ئذ شرع فى نشر تعاليمه بين قبائل صنهاجه ودعاهم إلى الجهاد بصورة عملية وبعثهم إلى أقوامهم ليذروهم ويطلبوا إليهم الكف عن البدع والضلالات واتباع أحكام الدين الصحيح ففعلوا ما أمروا به ودعا كل قومه إلى الرشد والهدى ومُجَابنة التقاليد المنافية للدين فلم يصغ لهم أحد من أقوامهم فخرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه واستدعى أشياخ القبائل ووعظهم وحذرهم عقاب الله ونصحهم باتباع أحكامه فلم يلق منهم سوى الإعراض والتحدى فعندئذ قرر عبد الله وصحبه إعلان الحرب على أولئك المخالفين وكان صحبه يزداد عددهم كل يوم حتى بلغوا بضعة آلاف ، فوجه إنذاراً إلى الملثمين وأشراقهم بعد أن وعظهم وحاول إقناعهم باللين حتى يغيروا منكراتهم وانتهى أجل الإنذار بعد سبعة أيام ، فلم يلتفتوا إليه فأخضعهم بالقوة وبدأ بلمتونة وكدالة ثم مسوفة وبعث بنصيب من أموال الغنائم إلى طلاب العلم ببلاد المصامدة .. وكانت غزوته لكدالة فى نحو ثلاثة

آلاف وقتل منهم خلقا كثيرا وأسلم الباقون من جديد إسلاماً صحيحـــاً .. ثـــم ضيق الخناق على لمتونة حتى أذعنوا للطاعة وبايعوه على الكتاب والســـنة وحذت مسوفة بعد قتاله لها حذو لمتونة فى الطاعة والبيعـــة علـــى الكتـــاب والسنة ، وهكذا تعاقب خضوع قبائل صنهاجة واحدة بعـــد الأخـــرى حتـــى خضعوا جميعاً وكان من تعاليمه أن يضرب التائب مائة سوط حتى يطهر ثم يلقن تعاليم القرآن وأحكام الشرع وبسط عبد الله بن ياسين سلطانه الروحـــى على سائر قبائل تلك الصحارى وجعل السلطة الزمنية ليحيى بـــن إبراهيـــم الكدالى وأن كان هو المستأثر فى الواقع بكل سلطة وإليه الأمر والنهى وجبى عبد الله الأموال من الزكاة والعشور والفيء واقتنى الخيل والســـلاح واشـــتد بأسه واشتهر أمره في سائر جنبات الصحراء وفى المغرب والسودان ولمـــا توفى الأمير يحيى بن إبراهيم ندب عبد الله مكانه للرياسة الأمير يحيى بـــن عمر بن تلا كاكين اللمتونى ليتولى شئون الحرب والجهاد (١) .

وكان يحيى بن عمر اللمتونى أميراً ورعا زاهدا وكان كثـــير الـــولاء والطاعة لعبد الله بن ياسين ، ومما يروى فى ذلك أنـــه ضربـــه ذات يـــوم عشرين سوطاً لأنه باشر القتال بنفسه مع جنـــده ، ولأن الأمـــير يجـــب ألا يعرض نفسه للمخاطر وأن يقتصر على حث جنده وتقوية نفوســـهم وحيـــاة الأمير هى حياة عسكره وفى موته فناء جيوشه ، وقاد الأمير يحيـــى عـــدة حملات وافتتح جميع جهات الصحراء ، وغزا بلاد السودان وافتتح كثيراً من أنحائها وكانت حركة المرابطين وأعمال زعيمهم عبد الله بـــن ياســـين قـــد

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٠ ، السلاوى الناصرى : الاســـتقصا جـــ١ ص ١٠١ .

أخذت تحدث صداها فى قواعد المغرب وكان المغرب يومئذ قد انقسم بعد انقضاء أمر الأدارسة وبعد أن لبث منذ منتصف القرن الرابع مسرحاً لحروب الشيعة وخلفاء قرطبة الأمويين ، إلى ممالك وأمارات عدة ، تسودها مختلف القبائل البربرية ولاسيما صنهاجة وزناتة ومغراوة وكانت أعظم ممالك ممالكهم زيرى بن عطية الزناتيين وبنيه بعده وقد استطالت منذ أيام المنصور بفاس ومعظم أعمال المغرب الشمالى حتى أوائل القرن الخامس واستقر بنو يفرن بأعمال الشاطئ فى سلا وما يليها واستقر بنو حزرون المغراويون بدرعة وسلجماسة وأعمالها وبأنحاء أخرى فى أواسط المغرب واستقرت برغواطة جنوباص بشاطئ المحيط ، وهكذا كان المغرب يقدم يومئذ بظروفه وإماراته الصغيرة المتفرقة فرصة طيبة للطامعين والمتوثبين وكانت العناصر الناقمة فى تلك الإمارات المستبدة تتطلع إلى أولئك القوم الجدد الذين يضطرمون بالحماسة الدينية وينادون بالإصلاح والتزام أحكام القرآن والسنة ففى سنة ٤٤٤هـ بعث فقهاء درعة وفقهاء سجلماسة بكتبهم إلى عبد الله بن ياسين وإلى الأمير يحيى اللمتونى وأشياخ المرابطين يشكون مما وقع فى بلادهم من ضروب الظلم والعسف والخروج على أحكام الدين ويدعونهم إلى إنقاذ المسلمين من هذا النير المرهق وكانت درعة وسلجماسة يومئذ تحت حكم بنى وأنودين من زعماء مغراوة وأميرهم يومئذ هو مسعود ابن وأنودين فجمع عبد الله بن ياسين أشياخ المرابطين وشاورهم فى الأمر ، فرأوا وجوب الدعوة والسير إلى غوث أهل المدينتين .. وخرج المرابطون من الصحراء فى سنة ٤٤٥هـ فى أعداد ضخمة واتجهوا إلى درعة فاصطدموا بجيش مسعود بن وانودين أمير مغراوة ، وصاحب سجلماسة

ودرعة فانهزم هزيمة نكراء وقتل فى المعركة ودخـــل المرابطـــون مدينـــة سلجماسة وأصلحوا من أحوالها وغـــيروا المنكـــرات وأســـقطوا المغـــارم والمكوس وبعثوا عمالهم على الصدقات ثم تدفق المرابطون فـــى موجـــات متتابعة إلى الواحات المغربية الواقعة بين نهر درعة الأوسط وتـــافيلت ، إلا أن زناتة لم تحتمل غزو الصنهاجة فثارت تافيللت وخرجت سلجماسة علـــى المرابطين فأعلن عبد الله بن ياسين الجهاد وسار إلى قتل زناتة ولكن قـــائده يحيى بن عمر قتل فى إحدى المعارك سنة ٤٤٧هـ فخلفه على القيادة أخـــوه أبو بكر بن عمر .. ثم كانت الخطوة الثانية فى افتتاح المغرب هى غزو بلاد السودان ، ففى ربيع الثانى سنة ٤٤٨هـ سار المرابطـــون نحـــو جنـــوب غربى المغرب قاصدين بلاد السوس وجعل الأمير أبو بكر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى وهى أول مرة تقدم إلينا الروايـــة فيـــها عاهل المرابطين العظيم فيما بعد . وبدأ يَغْزوا بلاد جزولة ثم فتح ماســـة ، ثم سار إلى مدينة تارودانت وقاتل الشيعة الرافضة وتمكـــن مـــن فتحـــها ، وكانت الطائفة الشيعية هذه تسمى البجلية نسبة إلى مؤسسها على بن عبد الله البجلى الرافضى ، وكان قد قدم إلى تلك الأنحاء أيام عبد الله الشيعى (أواخـــر القرن الثالث الهجرى) ونشر بها مذهبه وهو يتضمن كثـــيرا مـــن التعـــاليم المثيرة " فقتل المرابطون أولئك الروافض وارتد من بقى منهم إلـــى الســـنة ودوخ المرابطون بلاد السوس واستدلوا على سائر نواحيها وعين عبد الله بن ياسين لها عمالا من المرابطين وأمرهم باتبـــاع العـــدل والســـنة والاكتفـــاء بتحصيل الزكاة والأعشار وإسقاط ما عدا ذلك من المغارم الجائرة " (١) .

---

(١) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٠٥ ، القاهرة ١٩٦٩م .

وقصد المرابطون بعد ذلك منطقة جبال الأطلس وبلاد المصامدة وتوغلوا في جبال درن وفتحوا شقشاوة ونفيس وردة وكل منطقة جدميوه وبايعتهم كل قبائل تلك المناطق .. ثم انطلقوا إلى أغمات وكانت يومئذ لمغراوة وأميرها لقوط بن يوسف بن على المغراوى فضربوا حولها الحصار ودافع لقوط عن مدينته أشد دفاع ولكنه لما رأى عبث المقاومة فر مع أهله تحت جنح الظلام وإلتجأ إلى حماية بنى يفرن أمراء تادلا ودخل عبد الله بن ياسين وجنده المرابطون أغمات فى سنة ٤٤٩هـ وأقام بها نحو شهرين حتى استراح جنده ثم قصد إلى بلاد بنى يفرن وهاجم قاعدتهم تادلا واقتحمها وقتل من بها من بنى يفرن وظفر بلقوط المغراوى فقتله وكانت زوجه زينب بنت إسحاق النفراوية قد اشتهرت بحسنها ونبلها فتزوجها الأمير أبو بكر اللمتونى وبعد أن نظم عبد الله بن ياسين شئون هذه المنطقة سار إلى تامسنا لمقاتلة قبائل برغواطة . وكانت هذه القبائل – كما سبق أن عرضنا – تدين بمذهب تنافى تعاليمه الإباحية أحكام الإسلام ، وكان من الطبيعى أن يتجه المرابطون إلى قتال هؤلاء الكفرة الوثنيين ومن ثم فقد سار عبد الله بن ياسين وقائده أبو بكر اللمتونى فى جمع المرابطين إلى أرض برغواطة وكان الأمير عليهم يومئذ أبو حفص بن عبد الله بن أبى غفير بن محمد بن معاذ ، ونشبت بين المرابطين وبين البروغواطيين وقائع شديدة أصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولى إمام المبراطين ومنشئ طائفتهم بجراح بالغة توفى منها فى نفس اليوم ، ولما أحس بدنو أجله جمع أشياخ المرابطين وقال : " يا معشر المرابطين أنا ميت فى يومى هذا وأنتم فى بلاد أعدائكم فإياكم أن تحنثوا وتفشلوا وتذهب ريحكم ، كونوا ألفة على الحق وإخواناً فى

الله وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا وإنى ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم يقود جيوشكم ويغزو أعداءكم ويقسم فيكم زكاتكم وأعشاركم (١) " . وكان مصرعه فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٤٥١هـ ودفن فى مكان يعرف بكريفلة أو كريفلت على مقربة من تامسنا وأقيم على قبره فيما بعد مسجد وما يزال مزاره قائماً معروفاً حتى اليوم .. " واتفق رأى المرابطين على اختيار قائدهم أبى بكر بن عمر اللمتونى للرياسة مكان إمامهم المتوفى وهو اختيار أوصى به عبد الله قبل أن يلفظ النفس الأخير (٢) " . ويذكر الدكتور عبد العزيز سالم : " أنه لما توفى ابن ياسين تولى زعامة المرابطين الروحية بعده فقيه اسمه سليمان بن عدو ولكنه توفى بدوره فى عام ٤٥١هـ ولم يخلفه رئيس آخر وإنما توارث سلطته فقهاء المالكية الذين واصلوا تعاليم ابن ياسين وكانوا يوجهون الأمراء ويحركونهم وخاصة فى عهد الأمير على بن يوسف .

ويبدو أن المرابطين أخذوا يخففون من غلوهم فى حركة الإصلاح التى قاموا بها وتحولت هذه الحركة الدينية تدريجياً إلى حركة سياسية كان الغرض منها السيطرة على المغرب (٣) .

كان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع والتقشف ولكن شديد الحمية والتعصب لمذهبه وقد ألقى فى تلك القبائل الساذجة مادة طيبة لبث تعاليمه

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٣٠ .

(٢) ابن أبى زراع : روض القرطاس ، ص ٨٤ .

(٣) دكتور السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير جـ٢ ص ٦٩٨ .

واستطاع أن يذكى فى نفوس أولئك المرابطين – اتباعه – تلـــك الحماســة الدينية البالغة التى حملتهم من الصحراء إلى ربوع المغرب وعاونتهم علـــى انتزاعها تباعاً من أيدى القبائل الخصيمة بيد أن عبد الله " كان مـــع شـــديد وروعه شغوفا بالنساء ، يتزوج فى كل شهر عدد منهن ويطلقـــهن ويســـعى إلى خطبة الحسان أينما وجدن وكان يأخذ ثلث الأموال المختلفة وهو إجـــراء يصفه المؤرخ بالشذوذ (١) " .

وقد ذكر لنا أبو عبيد البكرى فى معجمه " المسالك والممالك " بعـــض الأحكام الشاذة التى كان يطبقها عبد الله بن ياسين على المرابطين المنضوين تحت إمامته وفى مقدمتها أخذه الثلث من مختلف الأمـــوال بحجـــة أن ذلـــك يطيب باقيها وهو ما لا تسوغه الشريعة من أى مذهب ومنها أن الرجـــل إذا دخل فى دعوتهم وأبدى توبته على سالف ذنوبه قيل له أنك ارتكبت فى سالف شبابك ذنوباً كثيرة ويجب أن يقام عليك حدودها وتطهر من إثمها فيضـــرب حد الزنى مائة سوط وحد الشارب ثمانين سوطاً وحد المفترى مثلها وكذلـــك يفعل المرابطون بمن تغلبوا عليه وادخلوه قسراً فى رباطهم وإن علموا أنـــه قتل قتلوه سواء أتاهم تائباً طائعاً أو غلبوا عليه مجاهراً عاصياً ومن تخلـــف عن شهود الصلاة مع الجماعة شرب عشرين سوطاً وغير ذلك من الأحكـــام القاسية التى لا تطبعها سماحة الإسلام الحقيقى " (٢) .

---

(١) ابن أبى زراع : روض القرطاس ، ص ٨٤ .

(٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب المستخرج من " المسالك والممالك " والمنشور بعناية المستشرق البارون دى سلان ص ١٦٩ .

ظهور الدولة المرابطية :

نستطيع أن نقول أنه بوفاة عبد الله بن ياسين وقيام أبى بكر اللمتونى مكانة فى الرياسة ، تبدأ الدولة اللمتونية أو الدولة المرابطية وكان أول ما عنى به أبو بكر بعد دفن الإمام هو متابعة حرب برغواطة فحشد سائر قواته وجد فى قتالهم وأثخن فيهم حتى مزق طوائفهم وقتل وسبى منهم جموعاً كبيرة حتى أذعنوا لطاعته وأسلموا إسلاماً جديداً ونبذوا تقاليدهم الوثنية المثيرة وجمع ما استولى عليه من الأموال والغنائم وقسمها بين المرابطين ثم عاد إلى مدينة أغمات وأقام بها حتى شهر صفر سنة ٤٥٢هـ ثم غادرها فى قوات ضخمة من صنهلجة وجزولة والمصامدة وافتتح بلاد فازاز ومكناسة وسائر أراضى زناتة ثم سار إلى مدينة لواتة وكانت بيد بنى يفرن فاقتحمها عنوة وخربها وقتل من فيها وذلك فى شهر بيع الثانى سنة ٤٥٢هـ وعاد بعدئذ إلى أغمات (١) .

ظهور يوسف بن تاشفين :

بعد أن تم لأبى بكر فتح مدينة لواته فى سنة ٤٥٢هـ ، لبث فى أغمات عدة شهور وفد إليه أثناءها رسول من بلاد القبلة قاعدتهم بالصحراء ونبأه باختلاف المرابطين هناك ووقوع الخلاف بين لمتونة وسموقة فخشى أبو بكر أن تفترق كلمتهم وتشتت جموعهم وتتصدع صفوفهم ورأى ضرورة السفر إلى الصحراء ليصلح بين القبيلتين ويرأب الصدع ويوجد الكلمة فوكل شئون المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين وفوض إليه أمر قتال زناتة ونزل

---

(١) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٠٨ القاهرة ١٩٦٩م .

له عن زوجته الحسناء زينب بنت إسحاق النفراوية بعد أن طلقـــها حتـــى لا تشاطره خشونة الحياة فى الصحراء فتزوجها يوسف فيما بعد وأمره بمتابعـــة قتل مغراوة وبنى يفرن وزناتة ووافق أشياخ المرابطين على هذا الاختيار لما يعلمونه عن يوسف " من دينه وفضله وشجاعته وحزمـــه وعدلـــه وورعـــه وسداد رأيه وبمن نقيبته " (١) .

تصادف فى هذا الوقت أن قام بلكين بن محمد بن حماد بغزو المغـــرب الأقصى وافتتح فاس سنة ٤٥٤هـ ثم أخذ بعض رهائن من أهلها وعاد بـــهم إلى قلعته وكان الفتوح بن دوناس بن حمامة قد تنازل عن فاس إلى ابن عمه معتصر بن المعز بن زيرى بن عطية فبايعته قبائل مغراوة بفاس وأحوازهـــا فى رمضان سنة ٤٥٥هـــ واما قفل الأمير أبو بكر بن عمر إلى الصحـــــراء أقام يوسف بن تاشفين بأطراف المغرب ، فى سنة ٤٥٤هـــــ وعمـــد إلـــى تأسيس عاصمة للمرابطين بدلاً من أغمات لتكون مركزاً لقواته فى جنـــوب المغرب واختار موقعها على ضفاف نهر تنسيفت بين مدينتى أغمات ونفيـس حتى يتهيأ لها مراقبة المصامدة ثم تحرك يوسف فى سنة ٤٥٥هـــ ليســـتأنف فتوحاته بعد أن استعرض قواته " فكانوا أربعين ألفاً عقدهم على أربعة مـــن القواد وهم محمد بن تميم الجدالى وعمر بن ســـليمان المســـوفى ومزدالـــى التلكاتى وسير بن أبى بكر اللمتونى (٢) " ثم زحف إلى أحواز فاس وأبـــدى أميرها معنصر شجاعة عظيمة فى مقاومة المرابطين فصـــابرهم وانتصـــر عليهم فى إحدى المواقع ولكن يوسف تمكن من دخول فاس صلحاً فى ســـنة

---

(١) ابن خلدون جـــ٦ ص ١٨٤ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٣٤ .

٤٥٥هـ بعد أن فر عنها معنصر وخلف يوسف عليها عامله ثم مضى لمحاربة غمارة وفتح كثيراً من حصونها وقلاعها فانتهز معنصر فرصة قيامه بمحاصرة قلاع بلاد فازاز ودخل مدينة فاس وقتل عامل يوسف عليها ومن كان بها من المرابطين . ولما بلغ يوسف ذلك سير المهدى بن يوسف الجزنائى أمير مكناسة وكان قد بايع يوسف بن تاشفين بالإمارة إلى فاس فهاجمه معنصر وقتله سنة ٤٥٦هـ . وكان يوسف وقتئذ مشغولاً بمحاصرة قلعة مهدى من بلاد فازاز فوجه بعض قواته لمحاصرة فاس أما هو فقد مضى يفتتح الحصون والمعاقل فنازل بلاد بنى مراسين ونزلاوة وورغة سنة ٤٥٨هـ ثم مضى إلى بلاد غمارة سنة ٤٦٠هـ وكانت قواته المحاصرة لفاس قد قطعت عنها المرافق حتى اشتد الأمر على أهلها وقتل معنصر أثناء إحدى الاشتباكات سنة ٤٦٠هـ فخلفه ابنه تميم ولما فرغ يوسف من أمر غمارة سنة ٤٦٢هـ وزحف إلى فاس وحاصرها أياماً ثم افتتحها الفتح الثانى سنة ٤٦٢هـ ودخلها بالسيف وقتل من أهلها سبعة آلاف نسمة من جملة سكانها وعددهم ٤٣ ألفاً وقيل أنه قتل ثلاثة آلاف من أهلها " (١) .

وفى هذه الأثناء كان أبو بكر بن عمر قد وطد الأمن فى الصحراء وأزال الخلاف القائم بين قومه ثم عاد إلى المغرب الأقصى لاستئناف فتوحاته ولكنه وجد يوسف قد استبد عليه ويذكر ابن الخطيب أن يوسف لما قابل أبا بكر بن عمر " تلقاه راكباً لم ينزل له وعامله معاملة مختصرة واستظهر من جيوشه بما هاله عدده وقال له ما تصنع بهذه الجيوش يا

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥ ص ١٨٨ .

يوسف ؟ فقال : استعين بها على من خالفنى ونظر إلى بعير موقورة خلفه ، فقال : وما هذه الإبل ؟ فقال : جئتك بها وكل ما عندى من مال وكساء وطعام لتستعين به على الصحراء ، فعرف قصده فى استمساكه بالأمر وتورع عن هياجه وقعد معه على الأرض وقال له : يا يوسف اتق الله فى المسلمين ولا تضيع شيئاً من أمورهم فإنك مسئول عنهم والله خليفتى عليك وعليهم .

ثم مضى إلى الصحراء فى سنة ٤٦٥هـ حيث استشهد فى إحدى معاركه ببلاد السودان (١) .

ويذكر صاحب الحلل الموشية : " أن يوسف تلقى أبا بكر فى جيش عظيم وقدّم إليه هدايا ثمينة فعرف أبو بكر أن الأمور قد استقرت ليوسف فلم يطمع فى ملك لنفسه وتنازل ليوسف عن ولاية المغرب ثم رجع إلى الصحراء يصحبه نصف الجيش الذى كان يؤلفه الملثمون وعاش أبو بكر يجاهد فى بلاد السودان ويعمل فيها على نشر الإسلام حتى توفى هناك سنة ٤٨٠هـ على الأكثر (٢) .

ولما دخل يوسف مدينة فاس حصنها وأتقنها وأمر بهدم الأسوار التى كانت تفصل بين المدينتين وردهما مصراً واحداً وأدار عليها الأسوار وأمر ببناء المساجد فى أحوازها وأزقتها وشوارعها فإذا اكتشف زقاقا لا يقوم

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٣٣ .

(٢) الحلل الموشية : ص ١٣ ، ١٤ .

فيه مسجد عاقب أهله وبنى بفاس الحمامات والفنـــادق والأرجـــاء وأصلـــح أسواقها (١) .

ولم تمض بضعة أشهر حتى كان يوسف قد غلب على معظم نواحـــى المغرب الجنوبية ، والوسطى فعاد من غزواته المظفرة وقد عظم أمره وأشتد بأسه وذاع صيته فى سائر أنحاء المغرب .

أسباب تأسيس الدولة :

بعد أن وحد يوسف بن تاشفين بلاد المغرب وأقام دولة قويـــة تضـــم أقاليم القسم الغربى من المغرب لم يحاول أن يتلقب بالخلافة واكتفـــى بلقـــب أمير المسلمين وناصر الدين سنة ٤٦٨هـ ودعا للخليفـــة العباســـى ببغـــداد ويذكر صاحب الحلل أن ابن تاشفين لما طالبه بعض أصحابه باتخـــاذ لقـــب أمير المؤمنين قال : حاشا الله أن نتسمى بهذا الاسم إنما تسمى به خلفاء بنـــى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينـــة وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم (٢) .

هذا اللقب خلعه يوسف بن تاشفين على نفسه دون الرجوع إلى الخليفـة العباسى إذْ لَمّا انتصر يوسف فى موقعه الزلاقة وأسقط ملوك الطوائف كتَـب إلى الخليفة المقتدى بالله يطلب منه الخلع والإعلام والتقليـــد فلـــم يعـــترض الخليفة على ذلك ولكنه لم يخاطبه بلقب أمير المسلمين " وقد نشـــر الأســـتاذ الدكتور حسين مؤنس نص رسالة من الخليفة العباسى المستظهر بـــالله إلـــى على بن يوسف ، لم يخاطبه فيها بلقب أمـــير المســـلمين .. وقـــد اســـتخدم

---

(١) دكتور السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير جـ٢ ص ٦٩٩ - ٧٠١ .
(٢) الحلل الموشية ص ١١ .

المرابطون لذلك السواد شعاراً لهم فى ملابسهم وأعمالهم (١) ولاشـــك أنـــه كانت هناك عوامل أدت إلى تأسيس هذه الدولة المرابطية :

١- **العامل الأول** : سياسى : فقد كانت مملكة غانة قوية فى بدايـــة القـــرن الخامس ولما كان الملثمون قد أصبحوا يسيطرون على تجارة الســودان فى مطلع هذا القرن ورغبوا فى الاستيلاء على أودغشت سنة ٤٣٢هـ بالرغم من هزيمتهم أمام الغانيين .. وبالرغم من أنها كانت تحت أيديهم إلا أنهم عجزوا عن اقتحامها وكانت مركزاً تجارياً هاماً بقـرب نـهر النيجر فى الصحراء وقد دعا الخطر الغانى الملثمين إلى جمع صفوفهم والتراجع إلى الشمال حيث ضايقوا الزناتيين فى سجلماســة وناحيتـها وكان اضطراب الأحوال السياسية فى الشمال من أهم العوامـــل التـــى يسرت قيام دولة المرابطين .

٢- **العامل الثانى** : اقتصادى : والواقع أن حرب الغانيين والملثمين كـــانت صراعاً اقتصادياً تجارياً فقد كان أهم طريـــق تجـــارى بيـــن شـــمال الصحراء وجنوبها يمر من سجلماسة إلى أودغشت فكان السودان يدفـع الصوف والإبل بينما كان الشمال يدفع القمح وكان على القوافل أن تمر بديار الملثمين الذين سيطروا على تجارة الملح أيضاً حتى إذا طردهـــم الغانيون من أودغشت فقدوا السيطرة على تجارة السودان والحصـــول على مورد هام من المكوس التى كانت تدفعها القوافل ، وكان الملثمـون

---

(١) دكتور السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير جـ٢ ص ٧١٧ ، نقلاً عن الدكتـــور مؤنس : فى سبع وثائق عن دولة المرابطين ، وعن الدكتور أحمد مختار العبادى فـــى نظام الخلافة فى المغرب الإسلامى ص ١٥٦ .

يكونون جموعاً ضخمة من سكان الصحراء فكان زحفهم إلى الشـــمال عاملاً على كل حال فى تكوين دولة كان تأثيرها عظيماً فـــى توجيــه الحياة الاقتصادية بالمغرب فى إطار القانون الإسلامى .

٣- **العامل الثالث** : دينى ، فالأشراف كـــانوا يشــكلون طبقــة الأغنيــاء الأرستقراطية ويتحكمون بقسوة فى رقاب الطبقة الضعيفة (١) وكـــانت الحال فى سجلماسة قد بلغت منتهى الخطورة بسبب المكوس الجـــائرة التى فرضها الزناتيون على التجارة ، والانحلال الخلقى الذى يتمثل فى شرب الخمر والسرقة والزنا ، ولم تكن الحالة فى عامة المغرب بأحسن منها فى سلجماسة فقد استمر البرغوطيون يفســـدون عقــائد الســكان المجاورين فى سواحل المحيط الأطلسى أما فى فاس فقد بلـــغ الخطـــر درجة عظيمة بسبب النزاع بين المرغويين واليفرنيـــن وتضعضعـــت الأحوال الاقتصادية فكان على الملثمين أن يجابهوا كل هذه الأخطـــار والمصاعب ليقيموا حدود الدين وينشروا الإسلام فى كل ربوعـــه ثـــم ليؤسسوا أول دولة استطاعت أن تخضع المغرب لنفوذ موحد ابتداء من طنجة شمالاً إلى نهر النيجر جنوباً ومن ناحية أخرى وادى شلف شـرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً بالإضافة إلى بلاد الأندلس .

وإذا كان البعض من المؤرخين يرجع تأسيس هذه الدولة إلى العوامـــل السياسية فقط فإن هذا لا يستقيم مع طبيعة الأحداث لأن مملكة غانا هى التـــى تعرضت لضغط جيوش المرابطين منذ قيام دولتهم ، ثم لم تلبث عاصمتـــــها غانا أن سقطت فى يد أمير المرابطين أبى بكر بن عمر سنة ٤٦٨هـــ .

---

(١) السلاوى الناصرى : الاستقصا جـــ٢ ص ١٥ .

وإذا أرجع البعض منهم هذا التأسيس إلى العوامل الاقتصادية فقط فإن هذا لا يستقيم أيضاً فى حالة المرابطين خصوصاً وأن الطريق التجارى الصحراوى بين أودغشت جنوباً وسجلماسة شمالاً كان طريقاً معروفاً ومطروقاً من قديم وكذلك كانت قبائل صنهاجة تعيش فى صحرائها من قديم وكثيراً ما قاست من أهوال الجذب والقحط وكونت أحلافاً اقتصادية فيما بينها ، إلا أنها لم تتم بمثل هذه الهجرة الجماعية المنظمة إلى الشمال مما يدل على وجود عامل رئيسى آخر ساعد هذه العوامل كلها واندفع بها لتحقيق تكتل هذه القبائل والخروج بها إلى الصحراء شمالاً وجنوباً وهذا العامل من غير شك هو العامل الدينى ، " فالمرابطون كما هو واضح من أسمهم ومن أعمالهم كانوا قبل كل شئ أصحاب رسالة دينية يريدون تحقيقها وهذا هو السبب الأساسى فى خروجهم من الصحراء شمالاً نحو المغرب وجنوباً نحو السودان (١) " .

هل نجح المرابطون فى تحقيق رسالتهم ؟ :

لاشك أن المرابطين نجحوا إلى حد كبير فى تحقيق رسالتهم " ولعل أبسط دليل على ذلك هو أن تلك المناطق التى كانت موطناً للمبتدئين وذوى العقائد الضعيفة قد أصبحت فى القرنين السادس والسابع أى فى عهد المرابطين والموحدين من بعدهم من أشد المناطق تديناً بل وإغراقاً فى الزهد والتصوف ، ففى جبال غمارة ظهر عدد كبير من الصلحاء والمتصوفة الذين أفرد لهم عبد الحق البادسى كتاباً خاصاً تحت عنوان : " المقصد الشريف

---

(١) دكتور أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٦ .

والمنزع اللطيف فى ذكر صلحاء الريف (١) " ويكفى أن نشير إلى بعض أقطابهم أمثال عبد السلام بن مشيش وتلميذه ابن الحسن الشاذلى ، كذلك يلاحظ أن عادة تربية الشعور بين رجال غمارة التى وصفها البكرى فى أوائل القرن الخامس الهجرى قد اختفت بعد ذلك فحلق الناس رءوسهم وورث ذلك الأبناء عن الآباء وقد لاحظ هذا التغيير صاحب كتاب الاستبصار فى القرن السادس الهجرى وعلل ذلك بأنه نتيجة لتغلغل الإسلام (٢) فى بلادهم ، أما المنطقة الغربية والجنوبية التى كانت مهداً للبرغواطيين فقد تحولت هى الأخرى إلى مسرح خصب لحركة صوفية شعبية قوية ويكفى أن نشير إلى سلسلة الرباطات التى انتشرت على طول الساحل الغربى فى أنفا وأزمور وتيط وغيرها ، هذا إلى جانب الصلحاء والمريدين والمتصوفة الذين ظهروا بكثرة فى هذه المنطقة على عهد المرابطين والموحدين وقد أفرد لهم ابن الزيات التادلى كتاباً خاصاً تحت عنوان : " التشوف إلى رجال التصوف " .

هذا ويلاحظ أن هذه الحركة الصوفية كانت فى ذلك الوقت سليمة وبعيدة عن الشوائب والبدع لأن المشرفين على حكم المغرب فى ذلك الوقت كانوا متشبعين بالروح الصوفية السليمة فلم يسمحوا لظهور أى بدعة فى بلادهم وقد عبر عن هذه الحالة الإمام الزاهد أبو بكر الطرطوشى نزيل الإسكندرية عندما بعث برسالة إلى سلطان المغرب يوسف بن تاشفين يذكره فيها بالحديث النبوى الشريف : " لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة " ثم يضيف معقباً والله أعلم ، هل أرادكم بذلك رسول

---

(١) هذا الكتاب ألفه عبد الحق البادسى سنة ٧١١هـ .
(٢) كتاب الاستبصار ص ١٩٣ .

الله ﷺ أو أراد أهل المغرب لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع (١) .

الدولة المرابطية (دور العظمة)

يوسف بن تاشفين (٤٥٣ - ٥٠٠) :

قامت الدولة المرابطية الكبرى بفضل عبقرية رجل واحد هو يوسف ابن تاشفين بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه نابه طموح هو عبد الله بن ياسين واستحالت بسرعة على يد أبى بكر اللمتونى ثم يوسف من بعده من زعامة دينية محلية ، إلى ملك سياسى ضخم وقد ذكرت لنا الرواية عن هذا الزعيم الموهوب والجندى العظيم بعض معلومات خلاصتها ، أنه أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة ابن أمية الحميرى الصنهاجى اللمتونى فهى بذلك تنسبه إلى حمير وأمه حرة لمتونية إسمها فاطمة بنت سير بن يحيى وقد ولد بالصحراء فى سنة ٤٠٠هـ ، بيد أن المصادر لا تمدنا بشئ عن حياته الأولى .. ولا نرى هذه الشخصية تظهر فى تاريخ المغرب إلا فجأة عند زحفها نحو الشمال ضمن الجيوش المرابطية على أن شخصية ابن تاشفين بدأت تتجلى أكثر فأكثر منذ أن تسلم زمام السلطة من يد أبى بكر اللمتونى وكان يومئذ فى الثامنة والأربعين من عمره ومن ذلك التاريخ فقط تتبع المصادر أعمال يوسف وفتوحه العظيمة المتعاقبة وتصفه بأنه كان معتدل القامة أسمر اللون

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٥ . راجع الدكتور أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

خفيف العارضين جعد الشعر وكان كثير التواضع والقناعة والحياء ، وكـــان ممن تقبلوا دعوة ابن ياسين عن طواعية وإخلاص .. كذلك كـــانت معارفـــه بسيطة حاد الذكاء قوى العزيمة ، وبالرغم مما أتاه الله من بسطة فى الملـــك والنعم كان آية فى التقشف يرتدى الصوف طول حياته ولا يرتدى ســواه ولا يأكل سوى الشعير ولحوم الإبل وألبانها وكان بطلاً شجاعاً حازماً مـــــهيباً ، دائب التفقد لبلاده وثغوره وأحوال رعيته مجاهدا لا يفتر عن متابعة الجـــهاد منصوراً مظفراً فى معظم الوقائع التى خاضها ، جوداً كريماً ، عادلاً رفيقاً ، ينأى عن إرهاق رعيته بالمغارم المرحمة ولا يفترض منها إلا مـــا يجـــيزه الشرع من الزكاة والأخماس والأعشار وجزية أهل الذمة وأما عن شـــخصه فقد كان أكحل العينين أقنى الأنف ، رقيق الصوت (١) .

وقد حكم يوسف بن تاشفين أعظم إمبراطورية إســـلامية قـــامت فـــى المغرب الإسلامى فهو فضلاً عن إنشاء الإمبراطورية المغربية الكبرى ممتدة فيما بين تونس والمحيط وما بين البحر وحدود السودان قد انتهى بعد ظفـــره فى موقعه الزلاقة على جيوش أسبانيا النصرانية إلى افتتاح ممالك الطوائـــف فى الأندلس وبسط سلطانه على أسبانيا المسلمة .. وبذا كانت إمبراطوريتـــه ممتدة عبر البحر شمالاً حتى سرقطة فى شمال شرقى أسبانيا وحتى شـــنترين وأشبونة فى قلب البرتغال .

وكان يوسف بن تاشفين فى بداية أمره يلقب بالأمير فلما فتح المغـــرب واتسعت حدود مملكته ، أراد بعض أشياخ المرابطين أن يحملوه على اتخـــاذ سمة الخلافة فأبى – كما سبق أن عرضنا – وارتضى أن تكون ولايته مـــن

---

(١) الحلل الموشية ص ١٢ ، ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٧ ، ٨٨ .

الخليفة العباسى لتجنب طاعته على الكافة .. ويؤكد لنا ذلك ، ذكره فى سكته لاسم الخليفة العباسى (١) .

اختط ابن تاشفين مراكش سنة ٤٥٣هـ ، ليتخذ منها عاصمة لمملكته ، ولكى يكون فيها أقرب إلى الصحراء وأقاليم الشمال المتحضرة ، وفى نفس السنة كون جيشاً ضخماً يتكون من ١٠٠ ألف فارس بينهم صنهاجة وزناتة ومصامدة وغيرهم وبهذا الجيش فتح مدينة فاس سنة ٤٥٥هـ ونازل قلعة فازاز ، ثم زحف نحو طنجة ، ولكنه لم يهاجمها وكان بها سكوت البرغواطى الموالى لبنى حمود ثم إنحاز إليه المهدى الجزنائى أمير مكناسة ، ولكنه ما كاد يتوجه إلى يوسف الذى رجع لحصار فازاز حتى تلقاه تميم المغراوى وقتله فاشتغل المرابطون بحرب تميم ثم استولى على فاس أحد أعقاب أبن أبى العافية الذى هزم المرابطين بينما رحل يوسف عن قلعة فازاز وترك جيشاً يحاصرها مدة تسع سنوات حتى فتحها سنة ٤٦٥هـ وبعد ارتحال يوسف عن قلعة فازاز اشتغل بإخضاع جبال الريف ثم نازل مدينة فاس سنة ٤٦٢هـ ، ودخلها بالقوة وأعمل السيف فى رقاب الزناتيين بها ، وقيل أن تميم بن معنصر كان من جملة القتلى ثم هدم ابن تاشفين الأسوار الفاصلة بين عدوتى القرويين والأندلس وتابع فتوحه فى أقصى الشمال ووجه همه بالذات إلى طنجة وكان بها يومئذ سكوت البرغواطى وكان من قبل فى خدمة أحد موالى الحموديين الذين خلفوا الأمويين فى الأندلس لبضع سنوات وكانت سبتة وطنجة فى دائرة نفوذهم ، وتوالى عليهما الولاة حتى تولاهما سكوت البرغواطى واستبد بأمرهما وأخضع لنفوذه القبائل المجاورة ، غير

---

(١) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣١٣ - ٣١٤ .

أنه ما كادت تحل سنة ٤٧٠هـ حتى زحف إلى طنجة القائد اللمتونى صالح بن عمران ففتحها بعد عراك عنيف فى أحوازها ، وقتل خلال هذا العراك سكوت البرغواطى ، أما سبتة فقد تحسن بها ضياء الدولة يحيى بن سكوت وفى هذه الأثناء ورد على يوسف كتاب من المعتمد بن عباد يستصرخه فيه على حرب النصارى فى الأندلس إلا أن يوسف أخبره بأنه لا يستطيع مساعدته مادام لم يفتح سبتة فعرض عليه المعتمد مساعدة بحرية ، فقبلها يوسف ، وجاء أسطول المعتمد إلى ميناء سبتة سنة ٤٧٧هـ بينما نازلها المعز بن يوسف برا وانتهى الأمر بفتح هذه المدينة الحصينة وقتل يحيى ابن سكوت .

على أن ابن تاشفين ، أرسل قائده مزدلى سنة ٤٧٢هـ إلى المغرب الأوسط فاستولى على أحواز تلمسان ، ثم زحف يوسف سنة ٤٧٤هـ إلى وجدة ففتحها بعد أن خرب مدينة نكور وتركها أطلالاً كما فتح تلمسان فى نفس السنة ، وشملت فتوحه أعمال شلف (١) .

الجهاد فى الأندلس :

بينما كان يوسف بن تاشفين يعمل لتأسيس دولة كبيرة فى المغرب كانت الأحداث تتطور تطوراً سريعاً فى الأندلس فقد أدى انقسام الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة إلى دويلات للطوائف إلى ظهور العنصرية الهدامة بين المسلمين عربهم وبربرهم وصقالبيتهم واستعان بعضهم على بعض ، بنصارى الشمال الذين وجدوا فى ذلك سيفاً مسلطاً على الإسلام

---

(١) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ . المجلد الأول ص ١٧٣ - ١٧٤ .

وفرصة مواتية للقضاء عليهم استغل فرناندو الأول وتسميه المصادر العربية فرذلند ، ملك قشتالة وليون هذه الفرصة واستولى على عـــدد مـــن المـــدن الأندلسية مثل بازو وقلمرية وأرغم ملوك الطوائف علـــى شـــراء حمايتـــه للاحتفاظ بعروشهم فلاذوا بالجزيات يدفعونها إليه اتقاء لشره ودرءا لتهديداته ورغبة فى خطب سلمه ومرضاته كما كانت وطأة ابنه ألفونسو السادس أشـــد على المسلمين من وطأة أبيه فرذلند ، فقد رأى أن يسدد الضربة الأولى فـــى طليطلة قلب الأندلس ، فأخذ يعد العدة للاستيلاء عليها ويتأهب لتحقيق هـــذا الهدف منذ سنة ٤٧١هـــ، وتمكن أخيراً من تحقيق أمنيته فى سنة ٤٧٨هـــ ، وازداد بذلك قوة على قوته : " وأخذ يجوس خلال الديار ويســـتفتح المعـــاقل والحصون " (١) وأحدث سقوط طليطلة فى أيدى القشتاليين دوياً هـــائلاً فـــى المغرب والأندلس على السواء ، وقرعت نواقيس الخطر تنذر ملوك الإســـلام فى الأندلس بسوء المصير فأحسوا بضعفهم وتنبهوا بعد فـــوات الأوان إلـــى نهايتهم الوشيكة بل أن سقوط طليطلة كان نذيراً بالنهاية المحتومـــــة لدولـــة الإسلام فى الأندلس (٢) وكان عاملاً جوهرياً حمل ملوك الطوائف علـــى أن يتجهوا إلى الاستنصار بابن تاشفين – وإن كان البعض من المؤرخين يرجـــع استنصار هؤلاء الملوك بالمرابطين – إلى ما قبل سقوط طليطلة بعـــامين أو بثلاثة ، فقد سقطت طليطلة سنة ٤٧٨هـــ ، بينما نجد صريخ الأندلس يتوالى على بلاط مراكش منذ سنة ٤٧٤هـــ حيث وفد فى ذلك العام علـــى يوســـف جماعة من أهل الأندلس وشكوا إليه ما حل بهم من عدوان النصارى وطلبـوا

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـــ٦ ، ص ٨٨ .

(٢) دكتور السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير جـــ٣ ص ٧١٨ .. راجع .

إليه النجدة والعون فوعدهم بتحقيق أمنيتهم (١) ثم توالى صريخهم بعد ذلك ، ففى رسالة يوسف بن تاشفين إلى المعز بن باديس أمير أفريقية عقب موقعة الزلاقة يقول : " .. فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز المرة بعد المرة وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار " .. ويبدو أن فكرة استدعاء المرابطين للأندلس قد خطرت .. حينما استفحل خطر ألفونسو السادس على دويلات الطوائف وذاق حلاوة الانتصار على المسلمين فى طليطلة .. فقد رأيناه عاقداً العزم على غزو الأندلس ، وعرض رعيَّته عليه أن يلبس التاج ويعيد عادة أسلافه القوط ، فأرجأهم فى ذلك حتى يستولى على دار ملك المسامين بقرطبة (٢) ، إذ كان يعتبر طليطلة نقطة دائرة الأندلس ، ثم عمد إلى استذلال ملوك الطوائف بفرض الإتاوات والجزيات عليهم ، وبدأ بالمعتمد ابن عباد ، كبير ملوك الطوائف فكتب إليه يطلب منه تسليم بعض حصونه وأعماله إلى رسله وعماله ، وبين ما كتبه : " من الأبنطور ذى الملتين ، الملك المفضل الأدفنش بن شانجة إلى المعتمد بالله سدد الله رأيه وبصره مقاصد الرشاد سلام عليك من مشيد شرفته العنا وثبت فى المنى فاهتز اهتزاز الرمح بعامله والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها وما صار بأهلها حين حاصرها بمن صار فى هذه السنين (٣) " .. وكان على رأس هؤلاء الرسل يهودى أغلظ فى القول للمعتمد فأمر بقتله وقتل رفاقه ، وكان إنذار بالحرب ضد ألفونس الذى بدأ يحشد قواته . وخلال

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٠ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ص ٢٤٤ .

(٣) الحلل الموشية ص ٢٣ .

ذلك تواردت الرسل على يوسف وكانت هذه الوفود شعبية ورسمية فـــى آن واحد (١) ، على أن أهم هذه الوفود تألف باقتراح من المعتمد واتفـــاق مـــع أميرى غرناطة وبطليوس وبمشاركة ثلاثة من القضاة أنيطت بهم مهمة حـث ابن تاشفين على الجهاد وقد قام المعتمد بهذا العمل بعد أخـــذ ورد حتـــى أن أكثر من استشارهم فى استنفار المرابطين نصحوه بألا يفعل وأن يقبل شروط النصارى مهما كان الثمن وقالوا له : " الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان فـــى غمد واحد " .. ولكن المعتمد ، اختلى بابنه وولى عهده الرشيد أبى الحســـن عبيد الله فقال له : " أنا فى هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجـــرم وليس لنا ولى ولا ناصر إلا الله تعالى وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلـــس ليس فيهم نفع ولا يرجى منهم نصرة ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنـــا عدو ثقيل وهو اللعين أذ فنش وقد أخذ طليطلة من ابن ذى النون بعد ســـبع سنين وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا ، وأن نزل علينا بطليطلـــة ما يرفع عنا حتى يأخذ اشبيلية وترى من الرأى أن نبعث إلى هذه الصحـــواء وملك العدوة ستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا فقد تلف لحاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنـــا وأبغضتنـــا العامـــة والخاصة " ولكن ابنه الرشيد لم يقره على هذا الرأى ، فقال لأبيه : " يا أبـــت تدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا " فقال : " أى بنـى والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم علـــى اللعنة فى منابر الإسلام مثل ما قامت على غـــيرى ، وحـــرز الجمـــال والله عندى خير من حرز الخنازير " ، فقال له : " يا أبتى افعل ما أمـــوك الله " ..

---

(١) السلاوى الناصرى : الاستقصا جـــ٢ ص ٣٦ .

فقال : " إن الله لم يلهمنى بهذا إلا وفيه خير وصلاح لنا ولكافة المسلمين ([1]) فكتب من فوره إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى غرة جمادى الأولى سنة ٤٧٨هـ يستصرخه على ألفونسو ويدعوه إلى الجواز على الأندلس للجهاد وإحياء شريعة الإسلام ، وكانت وفود الأندلس تتوالى من قبل على يوسف مستعطفة باكية ترجوه الغوث والإنجاد ، فيعدهم خيراً .. واتفق المؤرخون على أن هذه الوفود لم تكن تأتى تلتمس العون دون قيد أو شرط وإنما وقعت بينها وبين أمير المسلمين مفاوضات أسفرت عن عهود متبادلة خلاصتها أن يتعاون أمير المسلمين وأمراء الطوائف فى محاربة النصارى وأن يؤمن أمراء الطوائف فى ممالكهم ، وألا تحرض رعيتهم على شئ من الفساد ومن جهة أخرى فقد طلب أمير المسلمين عملاً ينصح وزيره الأندلسى عبد الرحمن بن أسبط أن يسلم إليه ثغر الجزيرة ، وقد كان يومئذ من أملاك ابن عباد لكى يكون قاعدة أمينة لعبور جيشه ، وقد نزل ابن عباد عند هذه الرغبة ، وأمر حاكم الجزيرة ولده يزيد الراضى بإخلائها ، لتكون رهن تصرف أمير المسلمين ([2]) .

وهكذا قرر أمير المسلمين – بعد استثارة قومه وفقهائه – أن يلبى صريخ أهل الأندلس وأن يبادر إلى إغاثتهم ولا نشك فى أنه وقومه كان يحدوهم حب الجهاد فى سبيل الله .. لكننا لا ننفى فى نفس الوقت رغبة جنده فى رؤية الأندلس وما اشتهرت به من الخصب والنعماء .. واستنفر يوسف كل قواته وحشدها للجهاد ، وحشد السفن لعبور قواته ، وعبرت أولاً قوة من

([1]) الحلل الموشية ص ٢٨ .

([2]) راجع محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

الفرسان بقيادة داود بن عائشة ، إلى ثغر الجزيرة الخضراء واحتلته وفقاً لما تم الاتفاق عليه ، ثم أخذت الجيوش المرابطية تعبر تابعاً حتى تم عبورها جميعاً إلى شبه الجزيرة ، وفى ضحى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩هـ عبر ابن تاشفين فى بقية قواته ، ولما كادت السفن العابرة تمخر عباب المضيق حتى اضطرب البحر وتعالت الأمواج فنهض الزعيم المرابطى حسبما - يتحدث هو نفسه - وسط سفينته ، وبسط يديه بالدعاء نحو السماء قائلاً : " اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا خيرة للمسلمين فسهل علينا جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه " ثم يقول : إنه ما كاد يتم كلامه حتى " سهل الله المركب وقرب المطلب وشاء ربك أن تعبر السفن المرابطية ، فى ريح طيبة وبحرها هادئ وأن تصل إلى ثغر الجزيرة فى سلام ([1]) .

ويبدو أن ألفونسو لما بلغه اتصال ملوك الأندلس بيوسف ، بعد تمرد ابن عباد عليه فى دفع الجزية .. وتصميم يوسف على نصرة إخوانه فى الدين أراد أن يحث يوسف على سرعة القدوم إلى الأندلس أملاً فى إلحاق الهزيمة به ثم القضاء بعد ذلك على ملوك الطوائف .. فأغار على البلاد حتى وصل إلى ساحل البحر عند الجزيرة . وكتب إلى الأمير يوسف : " من أمير النصرانية ادفونش بن فرذلند إلى يوسف بن تاشفين : أما بعد فإنك اليوم أمير المسلمين ببلاد المغرب وسلطانهم ، وأهل الأندلس قد ضعفوا عن مقاومتى ومقابلتى وقد أذللتهم بأخذ الجزية منهم وبالقتل والأسر والذل والقهر وأنا لا أقنع إلا بأخذ البلاد وقد وجب عليك نصرهم لأنهم أهل ملتك

([1]) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٣ .

فأما أن تجوز إلى وأما أن ترسل إلى المراكب أجوز إليك فإن غلبتنى كـــان ملك الأندلس والمغرب إليك وإن غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك إياها فإن نفوسهم متعلقة بنصرتك لهم " .. فلما وصل هذا الكتاب إلى يوســـف أم أن يكتب له على ظهر كتابه : " من أمير المسلمين يوسف إلـــى أدفونـــش ، أما بعد فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك والسلام على من اتبـــع الهدى ([1]) .

ويعقب الدكتور عبد العزيز سالم : " بأن القارئ لهذه الرسالة يشك فـــى صحتها ولكن الأساتذة ليفى بروفنسال وغرسيه جومـــث وأوليفـــر آســـين ، نشروا رسالة كتبها يوسف بن تاشفين إلى الناصر تميم بن المعز بن بـــاديس يذكر له فيها هزيمته لألفونسو بالزلاقة ، تضمنت هذه الحقيقة ، يقـــول ابـــن تاشفين : " وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأدفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه وفرقنا منـــه ، نعطـــوه المراكـــب ونسلموا إليه الشوانى والقوارب ليرد علينا ويقاتلنا فى مأمننا ، فلم نلتفت إليه ولا عرجنا عليه ([2]) " .

موقعة الزلاقـــة :

اشترط ابن تاشفين تسليم الجزيرة بناء على رأى مستشاره فقبل المعتمد شرطه ، ونزل يوسف بها مع جيشه ، ومـــا كـــاد يوســـف يطـــأ بقدميـــه ؟؟؟

المعتمد للنزول إلى إشبيلية للراحة من الرحلة .. لم يقبل ابن تاشفين ولم يرحب وقال : " إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه (١) " . وسار فى قوائه صوب إشبيلية ، ورتب المعتمد تقديم الأطعمة للجيش المرابطى على طول الطريق إلى إشبيلية ، وكان استعداده لذلك عظيماً سر به يوسف ، ولما اقترب الجيش المرابطى من إشبيلية خرج المعتمد إلى لقائه فى وجوه أصحابه وفرسانه وتعانق المعتمد وابن تاشفين وأظهر كل منهما لأخيه منتهى المودة والإخلاص ، وتوجها إلى الله أن يجعل جهادهما خالصا لوجهه ، وقدم المعتمد إلى أمير المسلمين جليل الهدايا ، كما قدم المؤن لسائر الجيش القادم ، وأيقن بلوغ النصر المنشود حينما رأى ما عليه الجيش من الضخامة وروعة الاستعداد ، وفى اليوم التالى سار أمير المسلمين إلى إشبيلية ومعه قواته وأقام هناك ثلاثة أيام وفى أثناء ذلك كتب إلى ملوك الطوائف ، يدعوهم إلى المشاركة فى الجهاد ولبى دعوته ابن سمادح صاحب المرية الذى بعث بقوات من قبله .. وكذلك عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة .. ثم سار أمير المسلمين فى تلك الجيوش الجرارة ومعه المعتمد فى قوات إشبيلية وقرطبة ووصلوا قرب بطليوس وتلقاهم أميرها عمر المتوكل وقدم إليهم المؤمن ، وانتظر ابن تاشفين وفود الرؤساء من سائر أقطار الأندلس أياماً وتأكد لديه أن كل واحد منهم مشغول بمدافعة النصارى ولم يلحق به منهم سوى عبد الله وأخيه تميم ومعز الدولة وتجمعت القوات الأندلسية فى وحدة تحت قيادة المعتمد بن عباد وكانت تمثل المقدمة .. وكانت القوات المرابطية تمثل المؤخرة .. أو القوة

---

(١) المراكشى : كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٣٢ .

الاحتياطية للجيش الإسلامى الموحد .. واستقرت هذه الجيوش فى سهل قرب حدود البرتغالية الحالية تسميه الرواية العربية بالزلاقة وبلغ ألفونسو تحـــرك القوات المغربية الأندلسية فاضطر إلى رفع الحصار عن سرقسطة وبدأ يحشد القوى النصرانية ويستنجد بأمم مسيحية فوفدت إليه قوى متعددة من الفرسـلن من ولايات فرنسا الجنوبية : ومن لانجدوك وجويانة وبرجونيه وبروفـلنس ، وقد ملأت نفسها بآمال عريضة فى الحصول على مغـانم كبـيرة وتحـالف ألفونسوا مع سانشو راميرث ملك أرغون وصاحب ببنلونى والكونت برنجار ريموند وكان سانشو مشغولاً بمحاصرة طرطوشة ، بينما كان برنجار يتأهب لغزو بلنسيه فانضما إلى ألفونسو السادس بجميع قواتهما ، أما ألفونسو فقـد حشد قوات هائلة من جليقية وليون وبسكونيه وأشتوريش وقشتالة واتجـهت قوات الفونسو نحو بطليموس حتى وصلت على بعـد ثلاثـة أميـال مـن معسكرات المسلمين وضربت مخيماتها . وفى سهل الزلاقة دارت المعركـة الكبرى .

جعل ألفونسو على مقدمة جيشه قائده البار هانيس وكانت تتألف فـى معظمها من جنود أرجوان والمتطوعة ، واختلف فى تقديـر عـدد جيـش النصارى فبعض الروايات تذكر أنه ثمانين ألفاً وبعضها يقدره بخمسـين أو أربعين ألفاً وكما اختلف فى تقدير الجيش النصرانى اختلف أيضاً فى تقديـر الجيش الإسلامى فمن الروايات من قدره بثمانين ألف مقاتل أو أربعين ألـف وبرغم كل هذه الاختلافات فى التقدير .. فقد اتفقت كل الروايـات علـى أن النصارى كانوا يفوقون المسلمين فى العدد (١) – وكما سبق أن عرضنا فـإن

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٥٢ .

الجيش الإسلامى كان ينقسم إلى مقدمة هى قوات الأندلس بقيادة المعتمد بن عباد والقوات المرابطية – وهى تمثل المؤخرة وكانت تضم فُرْسَان البربر يقودها داوود بن عائشة .. ونخبة أنجاد المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية بقيادة يوسف ابن تاشفين وهذه القوى المغربية فى مجموعها كانت تمثل احتياطى الجيش الإسلامى .

وقف كل من الجيشين لا يفصلهما سوى النهر والرسل تتجاوب بينهما وكتب يوسف قبيل المعركة إلى ملك قشتالة كتاباً يعرض عليه فيه : الدخول فى الإسلام أو الجزية أو الحرب . وجاء فى هذا الكتاب : " بلغنا يا أدفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون ذلك سفن تعبر فيها البحر إلينا فقد عبرنا إليك وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال .. " . ورد ألفونسو غاضباً بكتاب غليظ يفيض بالوعيد .. فرد يوسف إليه كتابه ممهوراً بتلك العبارة : " الذى يكون ستراه (١) " .

وكتب ألفونسو – محاولاً خديعة المعتمد بن عباد – يحدد يوم الموقعة .. كتب إليه يوم الخميس. يقول : " إن غدا يوم الجمعة وهو عيدكم وبعده السبت يوم اليهود وهم كثير فى محلتنا وبعده الأحد وهو عيدنا فيكون اللقاء يوم الاثنين ، فأدراك ابن عباد ويوسف خديعته وجاءت طلائعهم تخبر بأن معسكر النصارى فى حركة وضوضاء وجلبة أسلحة مما يدل على استعدادهم لبدء القتال ، وأخذ المسلمون حذرهم ولبثوا على أهبتهم (٢) ...

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٥٢ .

(٢) ابن أبى زرع: روض القرطاس ص٩٣، محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ص٢٣٢ .

وفى ليلة الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ - وكما توقع المسلمون - باغتت قوات ألفونسو معسكرات أهل الأندلس فانهزمت عند أول لقاء ودارت عليهم الدائرة وأبلى ابن عباد بالرغم من ذلك بلاء حسنا ، ثم أرسل كاتبه ابن القصيرة إلى يوسف بن تاشفين فركب يوسف من فوره على رأس قواته وقصد محلة ألفونسو : " فاقتحمها وأضرمها نارا وضرب طبوله فاهتزت لها الأرض ، وتجاوبت الآفاق ، فارتاعت قلوبهم وتخلخلت أفئدتهم ورأوا النار تشعل فى محلتهم وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم وأخبيتهم فسقط فى أيديهم فرجعوا قاصدين محلتهم ، فالتحمت الفئتان واختلطت الملتان واشتدت الكرة وعظمت الهجمات والحروب تدور على اللعين وتطعن رؤوس رجاله .. وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله .. فأمن الله المسلمين وقذف الرعب فى قلوب المشركين ، وتحطموا بين عسكر ابن عباد وعسكر يوسف ابن تاشفين ([1]) " .

انقضت قوات العبيد - التى أرسلها يوسف - للاشتراك فى القتال ، على قوات ألفونسوفهزمتها ، وجرح ألفونسو جرحاً بالغاً ، من طعنة بالخنجر سددها إليه أحد العبيد بعد أن التصق به ، ففر ألفونسو فى الظلام وتسلل هارباً إلى طليطلة مع الفلول من قواته المهزومة الممزقة .. وأمضى المسلمون الليل فى ميدان الحرب يرقبون حركات النصارى وفى صباح اليوم التالى أخذت فرسانهم فى مطاردة المتخلفين ، وعمدت قوة أخرى إلى جمع الأسلاب وكانت عظيمة وافرة .. ويذكر ابن أبى زرع : " أنه لم ينج من الجيش النصرانى سوى خمسمائة فارس أو أقل هم الذين فروا مع ملك

([1]) الحلل الموشية : ص ٤٣ .

قشتالة ، وتابع هذا الملك فراره ولم يتوقف إلا عند قوريـــــة .. علـــى بعـــد عشرين مرحلة من ميدان القتال ويضيف .. أن معظم أولئك الفرسان الفارين كانوا مثخنين بالجراح فمات معظمهم فى الطريق ولم يصل منهم إلى طليطلة مع مليكهم سوى مائة (١) " .

وتقول الرواية الإسلامية أيضاً أن المسلمين لم يخسروا فى المعركـــة سوى نحو ثلاثة آلاف (٢) .. هذا فى حين أن النصارى قد هلـــك معظمـــهم وتذهب الرواية فى تقدير خسائرهم إلى نحو ثلاثمائة ألف (٣) .. بيد أن هناك روايات أخرى أكثر اعتدالاً فيروى مثلاً أن أمير المسلمين أمر بقطع رؤوس القتلى من النصارى فقطعت وجمعت ، فاجتمع منها تل عظيم ، أذن من فوقه للصلاة ، واجتمع منها بين يدى المعتمد بن عباد أربعة وعشرين ألفـاً .. وأن رؤوس القتلى التى وزعت على قواعد الأندلس بلغت أربعين ألفـــاً ، وأنـــه أرسل إلى المغرب أربعين ألفاً أخرى لتوزع على قواعده .

ويقول ابن أبى زرع : أن الروم (القشتاليين) وكانوا ثمـــانين ألـــف فارس ومائتى ألف راجل – قتلوا جميعاً ولم ينج منهم إلا ألفونسو فى مائـــة فارس وهذه الأرقام بنفسها هى التى وردت فى خطاب الفتح الرسمى الـــذى بعث به يوسف إلى المغرب (٤) – وهذه بلا شك أقوال تحمل كلـــها طـــابع

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٦ .
(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٦ .
(٣) الحلل الموشية ص ٤٣ .
(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٦ ، ٩٧ ، ابن الأثـــير جـــ ١٠ ص ٥٣ ، وراجع أيضاً : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٢٨ .

المبالغة – وإن كانت الروايات النصرانية لا تنكر أن المعركة كانت هائلة وخسائرهم فيها كانت فادحة ومما لاشك فيه أيضاً-أن خسائر المسلمين أيضاً كانت عظيمة ، وإن كانت أقل كثيراً من خسائر النصارى وليس من المعقول أن تقتصر على ثلاثة آلاف فى مثل هذه الحشود الضخمة ، ذلك أنه فى معركة يطبعها من الشدة والتفانى والحماسة الدينية ما طُبِعَت به موقعة الزلاقة ، لابد أن تكون الخسائر فيها فادحة من الجانبين الظافر والمغلوب .. ولا يفوتنا هنا أن نسجل الخطأ الذى ارتكبه المرابطون بعد هذه المعركة ، إذ لم يحاولوا استغلال هذا النصر ومطاردة العدو داخل بلاده واسترداد طليطلة التى كان ضياعها هو السبب المباشر فى استنجاد الأندلسيين بالمرابطين ، ولو حاول المرابطون ذلك لكللت محاولتهم بالنجاح ، إذ أن جيش قشتالة كان محطماً ، وحدودها مفتوحة ، وعلى أى حال فقد وقف نصر المسلمين عند هذا الحد .. وقد تلقى أمير المسلمين فى نفس هذا اليوم نبأ وفاة ابنه وولى عهده أبى بكر ، وكان قد استخلفه فى مراكش وتركه مريضاً بسبتة فقرر العودة فوراً إلى المغرب ، وترك لسير ابن أبى بكر مهمة مواصلة الجهاد ، ويذكر الدكتور حسن محمود " أن أبا بكر بن عمر رئيس المرابطين توفى فى سنة ٤٨٠هـ ، بدليل أن العملات ظلت تضرب باسمه من سنة ٤٥٠هـ إلى سنة ٤٧٩هـ .. وانقطعت بعد ذلك التاريخ ، فليس ببعيد أن يكون الأمر قد اختلط على المؤرخين فذكروا أن ابن تاشفين رحل إلى المغرب لوفاة ابنه بدلا من ابن عمه (١) " .

---

(١) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٨٧ .

نتائج موقعة الزلاقة :

كان يوم الزلاقة من الأيام المشهورة فى انتصاره على النصرانيـــة .. كما كان صفحة من سيرة الحروب الصليبية التى كانت أسبانيا أول ميادينـــها والتى اشتعلت بعد ذلك فى المشرق .. فموقعة الزلاقة تعنى فى الواقع أكـــثر من هزيمة لملك قشتالة وأكثر من ظفر للمرابطين وحلفائهم .. ذلك أن فـورة المرابطين الدينية التى اجتاحت كل مدن المغرب .. وعبرت أسبانيا لنصـــرة المسلمين .. كان فيها أكثر من إنذار بمناهضة النصرانية فيما وراء أسبانيا .

ويؤكد لنا هذا المعنى .. ما تصرف به ألفونسو ملـــك قشـــتالة عقـــب المعركة فى الزلاقة ، فقد شعر بأن تحالف الإسلام فى أفريقيـــة والأندلـــس يوشك أن يقضى على أسبانيا النصرانية ، وأنه لابد أن يقابله حلف بين قـوى النصرانية ، ومن ثم فقد بعث برسله وكتبه إلى الملوك والأمراء النصـــارى فيما وراء البرنيه ، يحذرهم من الخطر الداهم ويحذرهم بأنهم إذا لم يتعـلونوا معه فسيجد نفسه مضطراً إلى الصلح مع المسلمين وسوف يتركهم أحـــراراً فى عبور البرنيه ، وكان لهذا التصرف من جانب ألفونسو صداه فى مختلـف الإمارات الفرنجية فبادر أمير تولوشه وأمير برجونيه يحشد قواتهما وســارع فرسان من نورماندى ومن سائر أنحاء فرنسا إلى التطوع .. ولكن ألفونســو حينما علم بأن يوسف بن تاشفين قد عاد إلى المغرب بعـــث إلـــى الأمـــراء الفرنج يشكرهم وينبئهم برحيل المرابطين ، وأنه لـــم تعـــد ثمـــة ضـــرورة لمقدمهم (١) .

---

(١) راجع : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٢ .

ويشعر المؤرخون المسلمون بخطـــورة موقعـــه الزلاقـــة وصبغتـــها الصليبية ويحطيون حوادثها بالكثير من الأساطير الدينية (١) .

وقد كان من النتائج العملية المباشرة لنصر الزلاقة :

١- تحرير سرقسطة وحمايتها من الوقوع فى أيـــدى القشـــتاليين وكـــانوا يحاصرونها وقت نزول المرابطين للأندلس .

٢- إحداث تغيير مفاجئ فى مجرى حركة الاسترداد التى خطط لها ألفونسو السادس ، فقد أرسل بعد هزيمته فى الزلاقة طالباً العون من الأمـــراء الفرنج شاكياً لهم حاله إذا هم تقاعسوا عن مساعدته .. فأخذوا يتنافسون فى تقديم العون له ، ولكنه عدل عن خطته بعد أن عاد ابن تاشفين إلـــى المغرب .

٣- صالح ألفونسو السادس قائده السيد الكنبيطور بعد أن احتاج إلى ســيفه ، واستقبله فى طليطلة فى هذا العام .

٤- رفع من شأن المرابطين أمام الرأى العام الإسلامى ، وصورهـــم فـــى صورة المجاهدين عن الإسلام ، المدافعين عن أراضيه .

٥- أسقط من قدر الطوائف فـــى نظـــر رعيتـــهم ، ومـــهد الســـبيل إلـــى إسقاط دويلات الطوائف وضم الأندلس إلـــى دولـــة المرابطيـــن فـــى المغرب (٢) .

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٣٣١ .

(٢) راجع دكتور السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير جـــ٢ ص ٧٢٦ - ٧٢٧ .

وبالرغم من أن حياة أسبانيا المسلمة لم تكن من ذلك الحين سوى صراع دائم بينها وبين أسبانيا النصرانية ، فإنها قد استطاعت أن تتابع نشاطها المنتج ، وتقدمها الحضارى الباهر .

حصار حصن لييط :

أيقن أهل الأندلس عقب موقعة الزلاقة أنه لا سبيل إلى نجاتهم وخلاصهم من إرهاق النصارى سوى الالتجاء إلى المرابطين وقائدهم ابن تاشفين .. وكان المسلمون قد بالغوا فى تقدير نصرهم هذا على الفرنج حتى أن قارنوه بأيام الإسلام الكبرى فى اليرموك والقادسية .. وكانت هذه المبالغة مقبولة نظراً لأن هذا النصر جاء بعد سلسلة من الهزائم المتتالية تلقاها المسلمون فى الأندلس من القشتاليين .

" ولم تكن نتيجة موقعة الزلاقة – بالنسبة للقشتاليين – سوى صدمة أصابتهم لزمن قصير .. ثم أخذوا يفيقون منها .. إذ لم تكن هزيمتهم عن ضعف وتخاذل وإنما ترجع إلى غرور ألفونسو بنفسه واعتزازه بقوته وسوء تصرفه .. فلم يكد يمضى عام واحد على هزيمته حتى كان قد تمكن من استعادة قواه ، فنقل ميدان نشاطه هذه المرة إلى شرق الأندلس (١)" . حيث كان ممزقاً من الناحية السياسية .. ولم يكن المرابطون بجيوشهم قد وصلوا إليه بعد .. فنجد ألفونسو يبادر إلى مصالحة السيد الكنبيطور فى طليطلة فى ربيع الأول ٤٨٠هـ فعفا عنه ، بعد خدمته الطويلة التى استمرت ١٦ عاما لملوك سرقسطة : المقتدر أحمد بن سليمان ابن هود وابنه المؤتمن يوسف بن

---

(١) راجع دكتور السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير جـ٢ ص ٧٢٨ .

أحمد ثم ابنه أحمد المستعين الثانى ضد القطلانيين والأرغونيين والقشـــتاليين .. ثم منحه إقطاعاتٍ واسعة منها حصنا غرماج الأموى ودونيـــاس ، وفـــى العام التالى اتجه الكنبيطور إلى سرقسطة عند أصحابه بنى هود ، ومن هناك بدأ يعمل على تنفيذ الخطة التى رسمها مع سيده ألفونسو لضم شرق الأندلـس وبالذات مدينة بلنسيه .. " ثم عمد القشتاليون – لكى يبسطوا قبضتهم علـــى تلك المنطقة إلى إنشاء حصن ضخم وافر المناعة فى مكان يسمى (لييـــط) يقع بين مرسيه ولورقة ، وهو أقرب إلى لورقة ، وشحنوه بالسلاح والمقاتلـة واتخذوه قاعدة للإغارة على أراضى مرسييه والمرية ، وبثوا فيها الرعـــب والروع وعجزت القوات الأندلسية النحلية عن رد عدوانهم حتى ضج أهـــل هذه الأنحاء مما ينزل بهم من صنوف الضـــر والأذى ، وكـــثر صريخـــهم واستغاثتهم وتوالت كتبهم ورسلهم على أمير المسلمين فـــى طلـــب الإنجـــاد والغوث (١) " ، ثم قدم إليه المعتمد بن عباد فتلّقاه ابن تاشفين أحسن قبـــول فى موضع بوادى سبو وكان يهدف لتحقيق مطلبين :

الأول : إيقاف الغارات القشتالية على شرق الأندلس .

الثانى : إعادة نفوذه إلى مرسيه باستعداء ابن تاشفين ضد ابن رشيق الـــذى انتزعها منه . وقد أوضح المعتمد لأمير المسلمين : أن لا راحـــة للمسلمين إلا بالتخلص والقضاء على (لييط) .. ولم يجد يوســـف ابن تاشفين بداً من تحقيق مطلب أهل الأندلس فى دفع هذا الخطـــر عنهم فعبر إلى الأندلس للمرة الثانية فى قواته فى ربيع الأول ســـنة ٤٨١هـــ ، وتلقاه ابن عباد فى الجزيرة الخضراء بالمؤن الوفـــيرة

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٩٨ .

وبعث أمير المسلمين بكتبه إلى ملوك الطوائف ورؤسائهم يستدعيهم جميعاً للجهاد وأن يوافوه بقواتهم عند حصـــن (لييـــط) ، وكـــان يوسف يبغى بعد الاستيلاء على الحصن أن يقضـــى علـــى نفـــوذ (السيد) فى منطقة بلنسيه ومن ثم فقد اتجه يوسف عـــن طريـــق مالقة صوب شرقى الأندلس ومعه المعتمد فى قواته ، وجاءه أيضـــاً تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخوه عبد الله صـــاحب غرناطـــة ، والمعتصم بن صمادح صاحب المرية .. بقواتهم .. وعند ظـــاهر الحصن وافاه ابن رشيق صاحب مرسيه – وكان على خلاف مـــع المعتمد كما سبق أن عرضنا وكان فـــى قواتـــه أيضـــاً ، وكذلـــك رؤساء : شقورة وبسطة وجيـــان وغيرهـــا وضـــرب المســـلمون الحصار حول الحصن الذى بلغت حاميته ثلاثة عشر ألف مقاتل .. إلى جانب الكثير من الجماعات النصرانية التى التجأت إليه . ورغم حصار المسلمين للحصن الذى طال أمده واستمر زهاء أربعة أشهر فقد انتهى بالفشل لشدة مقاومة الحامية القشتالية ولحصانة الحصـــن ومناعته واستعصاء نقبه ، ولاختلاف كلمة المسلمين .. حيث كانت الوقيعة بين أولئك الأمراء الطامعين المتنابذين فكان تميم صـــاحب مالقة وأخوه عبد الله بن صاحب غرناطة يشكو كل منهما الآخـــر ويتهمه باغتصاب حقوقه فى الميراث والسيادة وكـــان ابـــن عبـــاد والمعتصم بن صمادح يوقع كل منهما فى حق صاحبه لدى أمـــير المسلمين ويتهمه بمختلف التهم وبرز من بين هـــذه الخصومـــات بالأخص خلاف المعتمد وابن رشيق – الذى سبق أن عرضنا له –

ولم يقتصر اتهامه به باغتصاب ولاية مرسيه ، بل وصل الاتـــهام إلى أن المعتمد اتهمه بالتفاهم مع ملك قشتالة سراً وأنه دفـــع إليـــه جباية مرسيه وأنه يعاون حامية الحصن فى الخفاء .. ومال أمـــير المسلمين إلى تصديق تلك التهم ، واستفتى الفقهاء فى أمـــر ابـــن رشيق فأفتوا بإدانته ، فأمر بتسليمه إلى ابن عباد علـــى شـــرط أن يبقى على حياته ، مما أدى إلى انسحاب قادة مرســـيه - وكـــانوا أقرباء لابن رشيق - وكان لهذا الانســـحاب أثـــره فـــى الجيـــش الإسلامى نظراً لانقطاع المؤن التى كانت ترسل لهذا الجيش مـــن مرسيه وأحوازها .. فاختل أمر القوات الإسلامية ، وعلـــم أمـــير المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة يسير فى قوة كبيرة لإنجاد الحصن ، ففضل الانسحاب وعدم الاشتباك مع القشتاليين فى معركة غير مجدية .. وقدم ألفونسو إلى الحصن .. فلم يجد بداخله ســـوى مائة فارس وألف راجل ، وهى قوة غير كافية لحمايتـــه .. فقـــرر إخلاءه وعاد أدراجه سنة ٤٨٢هـــ ، وبعـــد أن غـــادر النصـــارى الحصن .. احتله ابن عباد .

ترك يوسف بن تاشفين قوة قوامها أربعة آلاف فارس تحت قيـــادة داود ابن عائشة ، لتعمل فى مرسيه وبلنسيه .. وسار هو إلى المرية فـــالجزيرة .. وعبر البحر عائداً إلى المغرب .. كما ترك أمراء الأندلس كل إلى مقره .

إخضاع الأندلس لحكم مباشر :

فى أوائل عام ٤٨٣هـــ ، عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلـــس مـــرة ثالثة ، ولم يكن عبوره هذه المرة تلبية لدعوة أو استغاثة من أمراء الأندلـــس

ولكنه هذه المرة كان ينوى الاستيلاء على الأندلس وتوحيد جبهة المغرب والأندلس لمواجهة خطر النصارى المتزايد ، وقد اختلف المؤرخون فى تقدير البواعث التى حدت بأمير المسلمين لاتخاذ هذا القرار وعقد هذه النية ، فمنهم من ذكر أن ملوك الطوائف شعروا بتغير يوسف عليهم فاتفقوا على قطع المدد والمؤن عن قواته التى تركها فى الأندلس (١) .. ومنهم من قال : " أن بعض رؤساء الطوائف رجعوا إلى التحالف مع ألفونسو ضده وممالاته وامداده بالأموال والهدايا – وكان هذا موقف عبد الله بن بلقين (٢) صاحب غرناطة ثم كان موقف المعتمد بن عباد ، ومنهم من ذكر : أن يوسف وصحبه قد راقهم ما شهدوه من خصب الأندلس ونعمائها وطيب هوائها ، ومن هنا كان طمعه فى امتلاك الجزيرة .. ويذكر ابن خلكان : " أن يوسف قال لبعض أصدقائه المقربين : " كنت أظن أنى قد ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت فى عينى مملكتى (٣) على أن المؤرخين جميعاً اتفقوا على أن يوسف كره من ملوك الطوائف انشغالهم بالصراعات فيما بينهم عن مواجهة العدو الواحد ، وضعف عقيدتهم الدينية وإقبالهم على الترف والعيش الناعم ، وأيقن أن هذه الحياة المترفة هى التى قوضت منعتهم وأضعفتهم عن مواصلة الجهاد .. وأن هذه الأمور إذا تركت بدون موقف حازم فإنها ستؤدى لاستيلاء النصارى على جميع أنحاء شبه الجزيرة (٤) وهذا سيؤدى

---

(١) ابن خلدون : جـ ٦ ص ١٨٧ .

(٢) ابن خلدون : جـ ٦ ص ١٨٧ .

(٣) راجع ابن خلكان جـ٢ ص ٤٠ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٨٩ ، وراجع أيضاً : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٣٧ .

حتماً إلى تهديد سلامة المغرب .. لأن الأندلس هى جناح المغرب الدفـــاعى من الشمال .

ونستطيع أن نقرر أن هذه العوامل مجتمعة كانت دافعاً لاتخاذ يوســف ابن تاشفين قراره الحاسم بإخضاع الأندلس .. وقد اتخذ قــراره هــذا بعــد مشاورته الفقهاء وحصوله على الفتاوى منهم فى المغرب والأندلس بوجـوب خلع ملوك الطوائف .. وقد اشترك فى هذه الفتاوى الأمام الغزالى ، وأبو بكر الطرطوشى (١) وكان فى مصر يومئذ كما استشار الزعماء وأهل الــرأى . عبر يوسف إلى الأندلس فى أوائل عام ٤٨٣هـ - كما ســبق أن ذكرنــا - واتسمت حملته بالجهاد ، وسار تواً إلى طليطلة ، ولم يتقدم أحد من ملـــوك الطوائف لمساعدته ، وخرب المرابطون ضياعها وأحوازهــا ثــم ضربــوا الحصار عليها .. ودافع ألفونسو عنها دفاعاً مستميتاً .. وأيقــن المرابطــون بعبث محاولتهم لما شاهدوه من أسوارها العالية .. فارتد يوســف بقواتــه .. وعرج بها نحو غرناطة وصاحبها عبد الله بن بلقين نظراً لاتصال بألفونســو ومحالفته سراً ومكاتبته له مستجيراً به وإفهامه أن البلد بلده .. وكان بعــض حشم عبد الله قد اتصلوا بأمير المسلمين وأدوا لــه اتصالــه بملــك قشــتالة واهتمامه بتجديد الأسوار وتحصين المدينة .

وكانت الأحوال فى غرناطة قد ساءت .. وضرب يوســف حصــاره عليها وأمر عسكره بحراسة حصونها حتى يمنع عنها المدد من النصــارى .. وأدرك عبد الله أن المقاومة لن تجدى فأرسل إلى أمير المسلمين يطلب الأمان وعاد إليه الرسل به من يوسف " فى النفس والأهل دون المال " ونصحته أمه

---

(١) ابن خلدون جـ٦ ص ١٨٧ .

وبعض خاصته أن يذهب إلى مقر يوسف ويسلم إليه نفسه ففعل ، فأصدر يوسف له أماناً فى نفسه وأهله وأمر باعتقاله حتى يتم حصر أمواله. وكانت لديه ولدى أمه أموال كثيرة . ودخل يوسف مدينة غرناطة ونزل فى قصرها .. وأقبل عليه الفقهاء والأعيان يبايعونه على الطاعة .. وأذاع فى الناس بياناً : أنه سوف يحكم بالعدل والرفق وفقاً لأحكام الشرع .. وخلع عبد الله ابن بلقين فى ١٠ رجب سنة ٤٨٣هـ (١) .. ونفى إلى مكناسة (٢) ثم نقل وأهله إلى مدينة أغمات .. وعاش عبد الله فيها حتى مات .. وكتب فيها مذكراته : " كتاب التبيان " .

وفى الوقت نفسه كان الفقهاء قد اتهموا تميم بن بلقين بالكثير من المظالم وطالبوا بخلعه .. فأرسل يوسف إليه بعض قواته إلى مالقة - وكان أميراً لها - فقبضت عليه وحمل إلى يوسف مكبلاً وأرسله إلى السوس ، ثم عفا عنه فسكن مراكش حتى توفى بها سنة ٤٨٨هـ (٣) وكان تميم أخا لعبد الله بن بلقين .

كان سقوط غرناطه نذيراً لكل ملوك الطوائف .. إلا أن المعتمد بن عباد .. كان يمنى نفسه ببعض الآمال الغامضة " حيث كان يوسف قد وعده بغرناطة متى استولى عليها (٤) " ، ولذلك فإننا نجد المعتمد والمتوكل بن الأفطس يذهبان لتهنئة يوسف بهذا الفتح .. واستقبلهما يوسف بجفاء فانصرفا

---

(١) ابن أبى زراع : روض القرطاس : ص ٩٩ - ١٠٠، ابن خلدون : جـ٦ ص ١٨٧.

(٢) الحلل الموشية : ص ٥١ .

(٣) عبد الله الزيرى : كتاب التبيان ص ١٧١ .

(٤) عبد الله الزيرى : كتاب التبيان ص ١٦٤ .

عنه ، وأدركا الحقيقة المروعة وشعرا بالنهاية المحتومة .. ويعود المعتمد إلى إشبيلية يقيم التحصينات والأسوار " ودعا أمير المسلمين المعتمد إلى لقائه فرفض وطلب إليه أن يتبع أحكام الشرع وأن يلقى المكوس الجائرة ، وأن يلتزم الرباط ومدافعة النصارى فلم يجبه إلى شئ (١) .

وغادر ابن تاشفين غرناطة إلى المغرب سنة ٤٨٣هـ . بعد أن فوض إلى ابن عمه الأمير سير بن أبى بكر بمحاصرة إشبيلية ودخولها والقبض على المعتمد بن عباد وحمله أسيراً إلى المغرب ، وقد نَفَّذ سير أمر يوسف فدخل المرابطون إشبيلية وسيق ابن عباد أسيراً إلى أغمات حيث توفى سنة ٤٨٨هـ .. كذلك عهد إليه أيضاً بالاستيلاء على بطليوس وإسقاط دولة المتوكل على الله عمر بن المظفر بن الأفطس وقد نفذ سير - أيضاً - هذا العهد حيث قتل المتوكل وابنيه فى أواخر عام ٤٨٨هـ .

وكان أمير المسلمين قد فوض - كذلك - إلى أبى عبد الله بن الحاج فتح قرطبة وإلى أبى زكريا بن واسنوفتح المرية وإلى حرور الحبشى فتح رندة وإلى داود بن عائشة فتح السهلة والبونت ومرسيه ، وقد علل يوسف ابن تاشفين اسقاطه لملوك الطوائف بقوله : " إنما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم ، وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين ولأملأها عليهم - يعنى الروم - خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة ولا علم

---

(١) الحلل الموشية ص ٥١ ، ٥٢ ، ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٠ .

عندهم برخاء العيش ، إنما هو أحدهم فرس يروضه ويستنفره أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبى دعوته (١) .

زحف المرابطون على قرطبة وكان حاكمها : الفتح الملقب بالمأمون وهو ولد المعتمد .. اتخذ الفتح استعداداته الدفاعية ، وأرسل زوجه وأولاده وأمواله إلى حصن المدور جنوبى غربى قرطبة ، على ضفة نهر الوادى الكبير - حتى تستطيع أن تفر - عند الضرورة - إلى ملك قشتالة وفى حمايته !! وكان هذا الإجراء - على ما يبدو - بموافقة المعتمد ، ولم تصمد قرطبة طويلاً فقد اقتحمها المرابطون بعنف وافتتحوها فى اليوم الثالث من صفر سنة ٤٨٤هـ وقتل الفتح وهو يدافع عنها (٢) .

وبفتح قرطبة دانت كل أراضى الوادى الكبير فى أيدى المرابطين .

ذكرنا فيما سبق أن أمير المسلمين فوض أبا زكريا بن واسنو فتح المرية فسار إليها فى قواته المرابطية ، والمعتصم بن صمادح كان أميراً عليها (على المرية) وكان يعانى من مرض الموت ، فأوصى ابنه معز الدولة .. قبل وفاته .. أن يترقب مصير إشبيلية .. فإذا سقطت وخلع أميرها المعتمد بن عباد فعليه أن يغادر المرية فوراً ويلجأ إلى حماية بنى حماد .. فلما زحف المرابطون قاصدين المرية استطاع معز الدولة أن يفر بأهله

---

(١) المراكشى : كتاب المعجب ص ١٦٢ ، راجع أيضاً دكتور السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ، جـ٢ ص ٧٣٢ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٠ ، وراجع : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٤٥ .

وأمواله وأن يعبر البحر إلى العدوة .. فى رمضان سنة ٤٨٤هـ ، ودخل المرابطون المرية على الأثر واحتلوها .

وكان قائد المرابطين سير بن أبى بكر أمام أبواب قرمونة أوائل ربيع الأول سنة ٤٨٤هـ وهى أمنع قواعد مملكة إشبيلية الشمالية وتعتبر حصن إشبيلية من الشرق فنازلها ودخلها عنوة فى ١٧ ربيع الأول من نفس السنة . وفى شوال من نفس العام .. استطاع ابن عائشة الاستيلاء على مرسيه كما استولى المرابطون - أيضاً - على شاطبة وشقورة ودانية .

وحاول المرابطون التدخل فى " بلنسيه " منذ سنة ٤٨٥هـ .. حيث أرسلوا قوات لهم بقيادة ابن عائشة .. ثم قوات أخرى بقيادة محمد بن تاشفين ابن أخى يوسف .. حاصرت بلنسيه سنة ٤٨٨هـ ولكن المقاومة من القشتاليين كانت قويه بحيث استطالت عدة أعوام .. واستعصت بلنسيه على المرابطين ولم يستطيعوا دخولها إلا فى شعبان سنة ٤٩٥هـ .

واستطاعت قوات مرابطية أخرى بقيادة ابن الحاج - والى بلنسيه - إخضاع سرقسطة وإخراج بنى هود منها وتم بذلك للمرابطين فتح شرقى الأندلس والثغر الأعلى وقضى على ملوك الطوائف فى تلك الأنحاء .

وفى غربى الأندلس فإن المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس كان قد ذهب مع المعتمد بن عباد إلى أمير المسلمين لتهنئته بالاستيلاء على غرناطة وسبق أن ذكرنا أن أمير المسلمين استقبلهما بجفاء ، وأنهما انصرفا من لديه وقد شعر كلاهما بالخطر المحقق على مملكته ، ولما استولى المرابطون على إشبيلية شعر المتوكل أن الدوائر ستدور عليه وقد كان .. !!

فقد بدأ المرابطون الإغارة على مملكته .. فاستغاث المتوكل بألفونسو السادس ملك قشتالة .. وتنازل له عن بعض أملاكه .. مما أدى إلى انصراف شعبه عنه .. وكتب أهل الرأى فيه إلى المرابطين يطلبون منهم النجدة .. فأرسلوا جيشاً فى أوائل سنة ٤٨٨هـ فاخترق أراضى بطليوس بسرعة وتقاعس ألفونسو عن حليفة المتوكل فلم يقدم له أية معونة ، واعتصم ابن الأفطس بقصبة بطليوس المنيعة ، فاقتحم المرابطون القصبة فى عنف وقبضوا عليه وعلى ولديه : الفضل : والعباس واستولوا على أمواله ، بعد أن عذبوه لكشف مخابئها .. واحتل المرابطون بطليوس وأخذوا المتوكل وولديه بحجة تسييرهم إلى إشبيلية ، ثم أعدموهم فى الطريق (١) .

ولما كان المتوكل قد تنازل عن ثغر أشبونة – فيما تنازل عنه – لألفونسو مقابل مساعدته ضد المرابطين ، ولما كان هذا الثغر هاماً واستراتيجياً بالنسبة للقوة الإسلامية فى الأندلس .. فقد هاجمه المرابطون بعنف وبشدة واقتحموه وأسروا معظم الحامية النصرانية فيه .. وحاول ألفونسو أن يرد على ذلك بحملة على إشبيلية إلا أنه فشل فيما عدا اقتحامه لقرمونة – وهى حصن إشبيلية الشرقى – واستيلائه على بعض الغنائم وسبيه لبعض الجموع .

ويجدر بنا – ونحن قرب نهاية الحديث عن فتوح المرابطين لممالك الطوائف – أن نتحدث بشئ من التفصيل ، عن فتح إشبيلية ونهاية المعتمد بن عباد ، تلك النهاية المأساوية التى كانت من أروع المآسى الملوكية

---

(١) المراكشى : كتاب المعجب ص ٤٢ ، راجع أيضاً ، محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٦٩ .

وقد أثارت محنة المعتمد عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ .. فالبعض من الرواة يصور المعتمد شهيد العنف والقسوة ويشدد الحملة على يوسف بن تاشفين يقول ابن الأثير : " وفعل أمير المسلمين بهم فعالاً لم يسلكها أحد من قبله ولا يفعلها أحد ممن يأتى بعده ، إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة .. وأبان أمير المسلمين – بهذا الفعل – عن صغر نفسه ولؤم قدره " (١) .

لقد وقعت الضربة الحاسمة فى يوم الأحد الثانى والعشرين من رجب سنة ٤٨٤هـ حيث هاجم المرابطون إشبيلية بعنف ، وأمعنوا فيها سفكاً وتخريباً وهجمت قوة من المرابطين على القصر الملكى ، فاستقبلهم المعتمد على باب القصر مدافعاً عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة ، ولكن كل هذه الشجاعة لم تغن شيئاً واستولى المرابطون على المدينة والقصور الملكية وقتلوا مالكاً ابن المعتمد بين يديه ونبهوا قصوره بين يديه .. وساد النهب والقتل المدينة الغنية .. وكانت محنة مروعة .

وأسروا المعتمد وآله ، وأصدروا له أماناً " فى النفس والأهل والولد " وإن كانوا أرغموه على أن ينصح ولديه : يزيد الراضى وأبا بكر المعتد بالخضوع والتسليم .. وحثتهما أيضاً " السيدة الكبرى " اعتماد الرميكية أم الأميرين رحمه بوالديهما .. فخضع الأميران للرجاء والنصيحة .. وأعطى جرور القائد المرابطى الأمان ليزيد الراضى وكان متحصناً فى " رندة " .. ثم نكث عهده وقبض على الراضى وأعدمه وأمر بقتل كل من ظفر به من الجند المدافعين بعد أن فتحت أبواب المدينة ودخلها المرابطون فى رمضان سنة ٤٨٤هـ .. ونهبوا أموال المعتد وأبقوا على حياته وكان متحصناً فى

---

(١) ابن أثير : الكامل جـ ١٠ ص ٦٥ .

ميرتة .. وبذلك تم للمرابطين الاستيلاء على قواعد مملكة إشبيلية . وهكـــذا سقطت إشبيلية فى أشهر قلائل ، ولكنها سقطت أبية كريمة فلم يدخر المعتمـد وسعا فى الدفاع عنها وظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة .

ويذكر ابن الخطيب : " كان دخول إشبيلية على المعتمد دخول القـــهر والغلبة ، شملت الغارة ، واقتحمت الدور وخرج ابـــن عبـــاد وابنـــه مـــالك للدفاع ، فقتل مالك الملقب بفخر الدولة ، وأرهقت ابن عباد الخيـــل فدخـــل القصر ملقيا بيده (١) " .

ويذكر الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف : " أن المعتمد لما التجأ إلـــى قصره بعد سقوط حاضرته ، وتفرق جيشه وفقد كل أمل فى النجاة ، فكر فى أن يقضى على نفسه بيده ، ولكن منعه من ذلك إيمانه العميـــق ، فاستســـلم لهوان الأسر ، وقبض عليه المرابطون وعلى سائر آله وولـــده ونســـائه (٢) " لم يكن وقوع المعتمد وآله أسرى فى أيدى المرابطين نهاية المحنة ولكنـــه كان يمثل بداية محنة أفظع وأقصى ، هى محنة الاعتقال والذل والمنفـــى .. " وقد قتل المرابطون من أبناء المعتمد أربعة .. ولكنهم آثروا الإبقاء على حياة المعتمد ذاته .. ولم يكن ذلك بباعث الرأفة به لأنه لم يكن من الذين يخشـــون الموت أو يتهيبونه ، بل كان يطلبه دائماً ويَسْعَى إليه ، وربمـــا أراد عـــاهل المرابطين بذلك أن يتجرع المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها .. ذلك الذى كـــان يعتبره .. حليف النصارى الخاضع المذنب فى حق دينه ووطنه (٣) " .

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٣١٩هـــ) جـــ٢ ص ٨٢ .

(٢) الفتح بن خاقان : قلائد العقبان ص ٢١ ، ٢٢ .

(٣) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٥٦ .

وودعت جموع الشعب الإشبيلى التى احتشدت على ضفتى النهر سيدها وراعيها المعتمد تحيق به وآله ، أغلال الاعتقال والذلة .. بالبكاء والنواح ..

وأنزل المعتمد إلى طنجة .. أياماً .. ثم إلى مكناسة بعد ذلك حيث التقى بعبد الله بن بلقين وأخيه تميم .. وقضوا هناك بضعة أشهر .. ثم أرسلوا بعد ذلك إلى أغمات .. ولم يكن المعتمد فى أغمات معتقلاً عادياً ، ولكنه كان فى سجن شنيع بكل معانى الكلمة ، واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوجة المعتمد ولم تستطع مغالبة المحنة نضارتها فذهب نضارتها بسرعة ثم توفيت ودفنت فى ظاهر أغمات بالقرب من معتقل زوجها وأولادها فحزن المعتمد لوفاتها أيما حزن ، واشتد به الضنى والأسى .

وحدث أن ثار عبد الجبار بن المعتمد - وكان ممّن أفلت عند سقوط إشبيلية - وامتنع فى حصن أركش جنوبى إشبيلية فى جمع من مؤيديه وأصحابه وبعث إلى ألفونسو السادس يطلب عونه .. وعلم الأمير سير فاتح إشبيلية بذلك ، فبعث إلى أمير المسلمين يخبره بالأمر فأرسل إليه مدداً من الخيل والرجالة وضيق الأمير سير وقواته الخناق على الحصن ويخرج عبد الجبار من حين لآخر يشتبك بالمرابطين فى معارك دامية وأصحابه يتساقطون من حوله تباعاً ، وفى ذات يوم أصاب عبد الجبار سهم رماه به أحد الرماة المرابطين ، فاحتمله أصحابه جريحاً ، وتوفى لأيام قلائل فكتم أصحابه موته وكان قد مضى على هذه المعارك نحو ستة أشهر وفنى كثير من حامية الحصن ، واشتد بها الضيق ، وعندئذ حاول القادة الأندلسيون الحصول على الأمان فرفض الأمير سير ، واقتحم الحصن أخيراً وقتل معظم

حاميته ، واستخرج جثة عبد الجبار من قبرهـــا ، واجـــتز رأســـه ورؤوس أصحابه ، وحملت إلى مدينة إشبيلية ، وعلقت علـــى أســـوارها ، ووقعـــت حوادث هذه الحملة في سنة ٤٩٠هـــ (١) .. وبسبب هذه الثورة التى قام بـــها عبد الجبار صدرت أوامر أمير المسلمين بالتضييق على أبيـــه " المعتمـــد " وتصفيده بالأغلال . ولما مات المعتمد غدا قبره وزوجه الرميكية فى أغمات مزاراً يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس واستمر كذلك عصوراً فزاره الكاتب والشاعر الكبير الوزير لسان الدين بن الخطيب سنة ٧٦١هـــ عند زيارته لمدينة أغمات ، وزاره - أيضاً - المقرى مؤرخ الأندلس فـــى سنة ١٠١٠هـــ .

ونشعر أنه قبل الحديث عن الأعذار والتبريرات التى انتحلت لاستخدام يوسف ابن تاشفين تلك القسوة وذلك العنف تجاه أمراء الأندلس بعامة وتجـــاه المعتمد بصفة خاصة .. يجدر بنا أن نتحدث عن مسألة تاريخيـــة هامـــة ، غمرتها الأسطورة .. تلك هى :

قصة زائدة الأندلسية :

ذكرت الروايات الأسبانية النصرانية ، أن ألفونسو السادس تزوج مـــن ابنة للمعتمد ابن عباد تسمى " زائدة " أو أنه اتخذها خليلة وأنجب منها ولـــده الوحيد سانشو .. وتزيد الروايات : أن المعتمد نفسه هو الـــذى قـــدم ابنتـــه للملك النصرانى وأنه نزل له أيضاً عن مواضع هى : قونقة ووبذة وإقليـــش وأوكانيا وكرانسويجرا وغيرها من الأماكن وهى التى كان قد افتتحـــها مـــن

---

(١) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٦١ .

مملكة طليطلة أيام بنى ذى النون وأن هذا كان ضمن المغريات للحلف الـذى عقده المعتمد مع ألفونسو عن طريق وزيره ابن عمار .. وأدى هذا التصرف إلى فضائح كبرى فى الأندلس .. واتهم ابن عباد بـــالتفريط فـــى عرضـــه ودينه .. وتقول الروايات النصرانية أيضاً أن زائـــدة كـــانت تحـــب الملـــك النصرانى " بالسماع " وتتوق إلى الزواج منه وأنها غدت زوجـــة أو خليلـــة للملك النصرانى عقب سقوط قرطبة بقليل .. وأنها بهذه المناســـبة اعتنقـــت النصرانية وتسمت باسم " ايسابيل " وفى رواية باسم " ماريا " .

ويقول / محمد عبد الله عنان : " أنه لا توجد بيـــن هـــذه التفـــاصيل المغرقة سوى حقيقة واحدة هى شخصية (زائدة) ، وأنها كانت حقيقة زوجة لألفونسو السادس أو خليلة له وقد أنجب منها ولده الوحيد سانشو الذى قتـــل طفلاً فى موقعة اقليش سنة ٥٠١هـ . ولكنها لم تكن ابنة للمعتمد ابن عبـــاد ولم يقدمها المعتمد لألفونسو ثمناً لحلفه ، ذلك أنه مما لا يســـيغه العقـــل أن يرضى أمير عظيم مسلم كالمعتمد بن عباد أن يزوج ابنته من أمير نصرانـــى أو أن يقدمها له جارية وحظية ومهما كان من تسامح المعتمد أو اســـتهتاره الدينى ، وإذا فرضنا أنه لم يكن يقيم فى مثل هذا التصرف الشـــائن ، وزنـــاً للاعتبارات الدينية والشرعية – وهو فى ذاته مما لا يقبلـــه العقـــل – فمـــن المستحيل ألا يحسب أعظم حساب لنتائجه السياسية وخصوصـــاً فـــى مثـــل الظروف الدقيقة التى كانت تجوزها أسبانيا المســـلمة يومئـــذ ، وأقلـــها أن يضطرب شعبه بالثورة عليه ، وأن يسحقه ويسحق أسرته ، ومن جهة أخرى فإن المعتمد كان يرمى من جانب خصومه فى الداخل وفى الخارج بألســـنة حداد من أجل استهتاره وتهاونه الدينى ، ولم يكن من المعقول أن يقدم بمثـــل

هذا التصرف إلى خصومه سلاحاً جديداً يضعه فى وصف المارقين والخوارج على الدين ويتابع الأستاذ : عنان قوله : " أما التفسير الحقيقى لهذه القصة فهو أن زائدة هذه زوجة للفتح الملقب بالمأمون وهو ولد المعتمد وكان حاكما لقرطبة ، وحينما هاجم المرابطون المدينة أرسل زوجته وولده وأمواله إلى حصن المدور ، أو أنه حينما قتل الفتح فى اقتحام المرابطين المدينة استطاعت زائدة أن تلجأ مع أولادها إلى هذا الحصن ثم إلى ملك قشتالة ، وربما كان ذلك بموافقة المعتمد ، ولما كانت زائدة على جانب كبير من الجمال . كان الملك النصرانى مزواجاً كلفا بالنساء فقد انتهز فرصة التجائها إليه واتخذها خليلة ثم تزوجها ، ونصر أولادها من الفتح ومن كان معها من الحشم ورزق منها بولده الوحيد سانشو وتوفيت عند مولد ولدها هذا ودفنت بدير ساهاجون وذلك فى سنة ٤٩٦هـ ، ولما اجتاح المرابطون أراضى قشتالة فى أوائل عهد الأمير على بن تاشفين وسار القشتاليون لمحاربتهم تحت أسوار قلعة اقليش ، بعث ألفونسو الصبى سانشو على رأس الجيش لكى يثير حماسة الجند فقتل فى الموقعة التى نشبت بين الفريقين وقتل معه معظم أكابر الجيش وقادته وذلك فى سنة ٥٠١هـ ، وتوفى ألفونسو على أثر ذلك غماً وحزناً .

واستند الأستاذ عنان فيما ذكره من أن زائدة لم تكن ابنة للمعتمد إلى ما ذكره ابن عذارى فى البيان المغرب بطريق غير مباشر ، وما ورد أيضاً عن الونشريشى فى كتابه : " المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب " ، ويعقب الأستاذ عنان على ذلك بقوله : " أن هذه الأسطورة لبثت عصوراً تمثل فى الروايات الأسبانية الكنسية وغيرها

كأنها حقيقة لا ريب فيها ، وقد زاد من غموضها صمت الرواية الإسلامية المعاصرة واللاحقة عنها .. والظاهر أن المؤرخين المسلمين قد شعروا بما يكتنف هذه القصة من إيلام للنفوس الكريمة فآثروا الأغضاء عنها ، باعتبارها حادثاً لا أهمية له من الناحية التاريخية (١) وإذا نحن أشرنا إلى ما كانت تتمتع به زوجة المعتمد وهى اعتماد الرميكية أيام مجدها وعزها فى البلاط الإشبيلى ومن منزلة عالية وذكرنا صفاتها اللامعة من الجمال والسحر والشاعرية والمشاركة فى مجال الشعر والأدب .. كانت هذه الحياة السافرة اللامعة فى بلاط إشبيلية مدعاة للطعن فى تصرفها وأخلاقها فمثلاً : " ينقل إلينا التيجانى الأندلسى عن الحجارى فى حق الرميكية ما يأتى " وهى التى ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة حتى كتب أهل إشبيلية عليه بذلك وبتعطيل صلوات الجمع ، عقوداً ورفعوها إلى أمير المسلمين فكان من أمره معه ما كان وسجن المعتمد بأغمات وسجنت الرميكية معه ، فماتت هناك قبله (٢) " ويحق لنا الآن أن نسأل :

لماذا كان العنف وسيلة ابن تاشفين مع المعتمد ؟ :

لقد كان هذا العنف لأن المعتمد اتبع سياسة خرقاء فى إدارته لشئون الأندلس ، وحالف النصارى ضد إخوته فى الدين ، وعرض بذلك مستقبل الإسلام للخطر .. كان هذا طمعاً فى تحقيق مجد شخصى .. ويدافع الأستاذ عنان عن المعتمد فى نطاق حملته على يوسف بن تاشفين قائلاً : أنه إذا كان

---

(١) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٤٥ - ٣٤٨ .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ٢ ص ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، راجع أيضاً محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٥٨ .

المعتمد يحمل بسياسته الأندلسية أمام التاريخ تبعات جسام ، فإنه من الحـــق أيضاً أنه حينما استفحل الخطب وظهر شبح الخطر على الأندلس المســلمة ، كان أول الداعين إلى الوحدة وإلى طلب الغوث من المرابطين .. ثم يقــول : إن البواعث التى حدت بيوسف إلى فتح الأندلس لم تكن دينية فحسب وإنمـــا كانت دنيوية قبل كل شئ .. ثم يتساءل : أى ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين المعتمد وآله بهذه القسوة ، بعد أن غدوا فى يده أسرى لا حول لهم ولا قوة ، وكيف سمح أمير المسلمين لنفسه أن تمتد هذه القسوة إلـــى الولـــد الضعاف والنساء والبنات ؟ أفلم يكن يكفى المعتمد فقد ملكه وسلطانه وأســره للتكفير عما أثم بسابق تصرفه ؟ ثم ينتهى الأستاذ عنان إلى القول : بأن هـذه الخاتمة المؤسية لحرية بأن تسبغ عليه ثوب شهيد ، يستحق عطف التـــاريخ وصفح الأجيال .. والحق أننا يجب أن ننظر للأحداث التاريخية والحكم عليها بعيداً عن الميول العاطفية ، التى نعتقد أن النهاية المفجعـــة للمعتمـــد كـــانت السبب فى إيجادها .. أننا إذا نظرنا إلى ما نقله التيجـــانى الأندلســـى عـــن الحجارى فى حق الرميكية - وســبق أن عرضنـــاه - ســنخرج بالحقـــائق التاريخية الآتية :-

١- أن المعتمد كان يجاهر بالمجون والاستهتار والخلاعة .

٢- أن أهل إشبيلية أخذوا عليه ذلك وكتبوا به إلى أمير المسلمين .

٣- أن المعتمد عطل صلوات الجمع كثيراً .

٤- أن وراء المعتمد فى هذا السلوك كانت تقف زوجته الرميكيـــة .. بمـــا عرف عنها من أن تصرفاتها الغير مسئولة هذه كانت مدعـــاة للطعـــن فى أخلاقها .

ولاشك أن أى مأخذ من هذه المأخذ وحده – ولا أقول كلـــها – كـــاف لتبرير ما حدث للمعتمد من نهاية مفجعة .

لم يكن المعتمد يقدر أنه فى الأندلس يمثل دينا جديداً طلب إلى كل مـــن اعتنقه أن يكون نموذجاً صالحاً له .. خصوصاً فى الأندلس ، تلـــك الأرض الجديدة على الإسلام .. التى كان يطمع أمير المسلمين أن تظل بـــها الرايـــة الإسلامية خفاقة .

وإذا قيل : بأن المعتمد كان أول الداعين إلى الوحدة فى وجه الزحـــف النصرانى على أسبانيا وأنه هو الذى ساعد وطلب من أمير المؤمنيـــن ذلـــك فإننا نقول : أن الانتهازية السياسية بدت واضحة تماماً فى سلوك المعتمد لأنه كان يسعى من أجل حماية سلطانه فقط ، لا من أجل حماية الإسلام .. بدليـــل أنه بعد أن تطورت الأمور ، ورأى أن سلوكه ونهجه فـــى الحكـــم أصبـــح موضع النقد من الرعية التى نقلت صورته لأمير المسلمين ، مما أدى إلـــى الاختلاف معه – نجده يسعى لتحقيق التحالف من ألفونسو ضد اخوتـــه فـــى الدين ألم يكن ذلك حماية لسلطانه ؟ أن المعتمد لم يكن يهمه أمر الأندلـــس .. بقدر ما كان يهمه أمر حكمه وتحكمه .

وإذا قيل بأن البواعث التى حدت بأمير المسلمين أن يفتـــح الأندلـــس كانت دنيوية قبل كل شئ .. قلنا : أن ذلك فيه ظلم كثير للمرابطيـــن الذيـــن قاموا أساساً من أجل نصرة الفكرة الدينية .. إن الحق يقتضينا القول : بـــأن البواعث التى حدت بأمير المسلمين أن يفتح الأندلس كانت دينيـــة ودنيويـــة معاً .

أما ما قاله الأستاذ " عنان " من أن الخاتمة المؤسية لابن عباد لحريـــة بأن تسبغ عليه ثوب شهيد يستحق عطف التاريخ وصفح الأجيال .. فهو يؤكد لنا : أن النهاية المأساوية لابن عباد هى التى كان لها تأثيرها على رأيه فـــى الحكم عليه .. مع أننا إذا لاحظنا أن ابن عباد وغيره من ملـــوك الطوائـــف ارتكبوا الخيانة العظمى - ليس فى حق الأندلس وحدها - ولكن فـــى حـــق أمتهم الإسلامية كلها .. إذا لاحظنا ذلك وأخذناه بعين الاعتبار لقلنـــا إن مـــا وقع للمعتمد بن عباد وغيره من ماوك الطوائف .. لهو القصاص العـــادل ، من كل حاكم مستهتر ماجن وخائن أيضاً لأمانى وطنه وأمته !!

ابن تاشفين فى الأندلس للمرة الرابعة :

بعد جواز أمير المسلمين للأندلس فى المرة الثالثة ، التى استطاع فيـها بقياداته التى تعاونت معه بإخضاع الأندلس - إلا القليـــل منـــها - لحكمـــه المباشر ، عاد إلى مراكش ، وأوكل شئون الأندلس إلى الأمير سير بن أبـــى بكر اللمتونى وهو من أقدر قواده وأكفئهم .

وبعد ذلك بعدة أعوام - أى فى عام ٤٩٦هـ ، عبر ابن تاشفين إلـــى الأندلس للمرة الرابعة .. وأن كان ابن عذارى يقول : " أن هذا الجواز الرابع كان فى سنة ٤٩٠هـ وكانت ممالك الطوائف كلها قد أصبحت فـــى حـــوزة المرابطين - ما عدا سرقسطة - التى سقطت فى أيديهم عام ٥٠٢ .. وانهار بذلك سلطان العصبيات - إلى حين - ثم ظهرت بعد ذلك فى شكل حركـــات ثورية قومية أندلسية . جهز أمير المسلمين جيشاً من العنـــاصر المرابطيـــة والأندلسية بقيادة محمد بن الحاج والتقى هذا الجيش بالقشتاليين ، وهزمـــهم

قرب كونسويجرا وفر قائدهم ألفونسو وحاصره المرابطون عدة أيام حيث كان قد إلتجأ إلى كونسويجرا .. ثم انصرفوا عنه .

كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قد استقدم معه ولده أبا الحسن على هو وأخاه الأكبر أبا تميم .. وكان يقصد أخذ البيعة لولده على مؤثرا إياه لما آنسه فيه من صفات الورع والذكاء والحزم .. وأصدر له عهداً بذلك فى سنة ٤٩٥ هـ ، وفى شهر ذى الحجة سنة ٤٩٦هـ جمع يوسف أمراء لمتونة وشيوخ المرابطين كبار الفقهاء ، وأخذ البيعة لولده هذا فى قرطبة وفى الحلل الموشية : " أنه كان من شروط البيعة لعلى : أن ينشئ بالأندلس جيشاً مرابطياً ثابتاً قوامه سبعة عشر ألف فارس ، موزعة على قواعد الأندلس ، منها سبعة آلاف باشبيلية وألف بكل من قرطبة وغرناطة وأربعة آلاف فى شرقى الأندلس ويوزع الباقى على الثغور (١) " .

وكان من الواضح أن اختيار يوسف قرطبة لأخذ البيعة بها لولده يمت بصلة وثيقة إلى صفة عاصمة الخلافة القديمة وزعامتها الأدبية السالفة (٢)" .

وفى سنة ٤٩٨هـ ، مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، واستمر يعانى من مرضه حتى اشتدت به العلة فى العام التالى ومازالت حالته تسوء شيئاً فشيئاً ، حتى توفى فى شهر المحرم سنة ٥٠٠هـ وقيل فى ربيع الآخر من نفس السنة ، وكانت وفاته فى قصره بمراكش ومن حوله ولداه : أبو الحسن على وأبو الطاهر تميم وكبار رجال لمتونة ودفن بالقصر

---

(١) الحلل الموشية : ص ٥٨ .

(٢) راجع : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٣٧٢ .

عن عمر يصل المائة عام ، وبعد أن وصلت الدولة المرابطية الكبرى على يديه إلى ذروة مجدها وقوتها .. وقد أوصى ولده عليا قبيل وفاته ، بثلاثة أمور :

الأول : ألا يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة .

والثانى : أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلاً بينه وبين النصارى .

والثالث : أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة وأن يجاوز عمن أساء منهم (١) " .

عبقرية يوسف بن تاشفين :

لنستطيع أن نقدر عبقرية هذا الرجل العظيم ، يكفى أن نعود نصف قرن إلى الوراء قبيل وفاته ، لنرى ما كان عليه المغرب والأندلس ، لقد كان المغرب مسرحاً للفوضى والتفرق ، تقاسمت أقطاره زعامات قبلية أنشأت إمارات متخاصمة أدت إلى قيام حروب ومنازعات شملت مروج المغرب وبواديه فى الوقت الذى ساد فيه الفقر وانتشر وعمت الفوضى واستفحلت .. فى هذه الأثناء ظهرت قوة المرابطين فى جنوبى المغرب قوة مصلحة غازية .. فتحت أقطار المغرب نواحيه وتغلبت على الإمارات المتنازعة والمتناثرة فى أنحائه وضمتها تحت لوائها فى وحدة متماسكة .. ولاشك أن هذا – فى حد ذاته – إنقاذ قومى للمغرب وعمل مجيد من أعظم الأعمال فى تاريخه المجيد وكان لدور يوسف بن تاشفين فى تحقيق هذا كله أثر كبير ،

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٠ .

وأحس الناس – فى ظل الدولة المرابطية الكبرى – بالأمن والاستقرار وعم الرخاء وساد الهدوء ، وتحققت بذلك – على يد أمير المسلمين يوسف – معجزة فى المغرب .

على أن الأوضاع فى الأندلس فى ظل أمراء الطوائف لبثت زمنا طويلاً تعانى مصائب التفرق والحروب الأهلية المتوالية .. كما انتزع النصارى قواعدها وأذلوها وابتزوا أموالها .. وظهر لأهل الأندلس أن أسبانيا النصرانية قاضية لا محالة على دول الطوائف كلها وأن نور الإسلام سينطفئ فى تلك الديار تبعاً لذلك بعد هذا كله جاء عبور يوسف بن تاشفين إلى تلك الديار نذير إنقاذ وكتبت لأسبانيا المسلمة حياة جديدة وبسط المرابطون سيادتهم على دول الطوائف ، فعادت للأندلس وحدتها الإقليمية .. وكانت سيطرة المرابطين على الأندلس فى تلك الفترة العصبية هى أوكد ضمان للحفاظ عليها وصيانتها وحمايتها من عدوان أسبانيا النصرانية وحقق يوسف بذلك معجزة أخرى فى الأندلس .. وكانت الوحدة بين الدولتين العظيمتين فى المغرب والأندلس فى ظل الدولة المرابطية ، من الأعمال الجليلة الكبرى ليوسف بن تاشفين " لقد كانت الدولة المرابطية فى المغرب والأندلس تدين بوحدتها وقوتها قبل كل شئ إلى عبقرية مؤسسها العظيم فلما اختفى يوسف من الميدان فقدت الدولة أعظم قادتها وحماتها .. فقدت تلك اليد الموجهة المرشدة ، التى كانت تقودها دائماً نحو التوطد والظفر وتلك العقلية الراجحة التى كانت تستشف الحوادث البعيدة من خلال الحجب وتعمل على تداركها وتوجيهها إلى الغاية المرغوبة (١) " .

---

(١) راجع : محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ص ٥٦ .

على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧) :

عند وفاة أبيه كان عمره ٢٣ عاماً ، وكان طويل القامة ، أسود العينين شديد الذكاء له إطلاع فى الفقه والأدب ، مع احترامه وتقديره للعلماء والفقهاء . وقد عبر إلى الأندلس لأول مرة بعد توليته سنة ٥٠٠هـ . كان على أميرا وافر الهمة والذكاء والعزم ، وكانت تحدوه رغبة أكيدة فى أن يسير على نهج أبيه فى الحكم وفى متابعة الجهاد وقد سار بالفعل وفق هذا المنهج ، وحقق فى ظله طائفة من جلائل الأعمال ، وكان قد خلف أباه فى نفس يوم وفاته ، وبايعه أول من بايع أخوه تميم معلنا بذلك طاعته له ، واحترامه لإرادة أبيه - الذى كان قد آثره عليه - ثم بايعه من بعده سائر من حضر من أشياخ وأكابر لمتونة ، وكتب على فى نفس الوقت إلى سائر نواحى المغرب والأندلس ، يعلمهم بموت أبيه ، وأنه تم استخلافه من بعده ويأمرهم بأخذ البيعة له ، فبايعه الفقهاء وكبار رجال الدولة ، وذلك بعد أن قبض على ابن أخيه يحيى بن أبى بكر الذى ثار بفاس وامتنع عن مبايعة عمه .. وكان يحيى والياً على فاس عند وفاة يوسف .. وحينما أرسل "على" بكتبه إلى أنحاء الأندلس والمغرب يأمر بأخذ البيعة له .. امتنع يحيى عن البيعة له وأعلن الخلاف . وبذلك كانت مدينة فاس وحدها هى المختلفة عن أداء البيعة فى الوقت الذى سارعت لأدائها كل الأنحاء فى المغرب والأندلس .. فما كان من على إلا أن جمع قواته واتجه صوب فاس لإخضاع يحيى الذى فر من المدينة بعد أن تخلى عنه أنصاره ودخل على المدينة فى ربيع الآخر سنة ٥٠١هـ .. فى هذه الأثناء كان يحيى فى طريقه إلى تلمسان حيث التقى بأميرها مزدلى الذى كان قادماً لإعلان بيعته " لعلى " .. فاستجار

به (يحيى) ووعده مزدلى بأن يشفع له عنده فاختفى يحيى فى أحواز " فاس " حتى شفع فيه (مزدلى) فعفا عنه (على) وخيره بين الإقامة فى الصحراء أو فى ميورقة .. فاختار الإقامة فى الصحراء .. ثم سافر للحج وبعد العودة استأذن عمه (عليا) فى أن يقيم بمراكش فأذن له .. ثم ارتاب فيه ، فقبض عليه ونفاه إلى الجزيرة الخضراء .. حتى توفى (١) .

عبر على إلى الأندلس يتفقد أحوالها فى جيش من المرابطين فى منتصف سنة ٥٠٠هـ .. وفد عليه القضاة والرؤساء والشعراء وأعربوا عن طاعتهم .. وغمرهم بصلاته وعطفه .

وفى الوقت نفسه قام ببعض التعديلات الإدارية فعزل أخاه تميم سنة ٥٠١هـ ونقله لولاية غرناطة ، وعين مكانه أبا عبد الله محمد بن أبى بكر اللمتونى وعين أبا عبد الله محمد بن الحاج لولاية المغرب .. ثم نقله - بعد ستة أشهر . والياً على بلنسيه .. كما أسند قيادة الجيوش المرابطية - فيما وراء البحر - إلى أخيه تميم أيضاً .

كانت الممالك النصرانية فى حالة ضعف باستثناء دويلات الشرق وكان من أهم أسباب ضعف هذه الممالك نزاعها الداخلى بشأن ولاية العرش .. فانتهز تميم أخو على فرصة اضطراب الأحوال فى هذه الممالك ، وكان قد حدث أن اعتقد ألفونسو السادس ملك قشتالة أن الفرصة قد سنحت له ليستأنف غزواته فى بلاد المسلمين بعد أن كانت بلغته صورة زائفة عن قوة المرابطين وعن الأمير يوسف بن تاشفين أثناء مرضه فى سنة ٤٩٨هـ ،

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٣ .

فأرسل جيوشه نحو أحواز إشبيلية حيث استولت على الكثير من المغانم ، وخرج الأمير سير بن أبى بكر والى إشبيلية وأبو عبد الله بن الحاج وإلى غرناطة بقواتها ، وطاردوا القشتاليين وقتلوا منهم الكثير .. فلما تولى على ابن يوسف الملك رأى أن يبادر القشتاليين بالهجوم نظرا لتحفزهم وسوء مقصدهم . فأمر أخاه تميم بتنفيذ تلك المهمة وتحقيق هذا المطلب . فصدع للأمر وخرج فى جيشه من غرناطة فى رمضان سنة ٥٠١هـ ، وانضمت إليه فى الطريق قوات قرطبة بقيادة أبى عبد الله محمد بن أبى رنق وحشود بلنسيه بقيادة محمد بن فاطمة وقوات مرسية بقيادة واليها أبى عبد الله محمد ابن عائشة .. وقع اختيار تميم على بادة " أقليش " الحصينة لمهاجمتها وكانت من أمنع المعاقل الواقعة فى شمال جبال طليطلة وجنوب غربى وبذة وما كادت القوات المرابطية تصل إلى اقليش حتى طوقتها وهاجمتها بعنف ، حتى سقطت فى ١٥ شوال سنة ٥٠١هـ ، ودخلتها هذه القوات ودكت هياكلها وهدمت كنائسها ولاذ المسلمون- الذين كانوا تحت حكم النصارى هناك - بحماية أخواتهم فى الدين وشرحوا لهم أحوال المدينة وظروفها .

والواقع أنه منذ أن اجتازت الجيوش المرابطية أراضى قشتالة والملك ألفونسو السادس يبذل ما فى وسعه لرد هذه الجيوش .. فجهز جيشاً بقيادة كبيره قواده ألبرهانس وغرسيه أردونيث مؤدب ولده يانشو : " وأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده - سانشو - عوضاً عنه ، فيكون مقابلاً وبعث ولده فى جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجادهم (١) " وكان سانشو هذا ولد ألفونسو السادس وولى عهده ، وهو الذى رزق به من " زائدة " ، التى كانت زوجة

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٤ .

للفتح بن المعتمد ابن عباد ، والتى سبق أن عرضنا لقصتها فى هذا البحث ، وكان يومئذ صبياً فى الحادية عشرة من عمره .

كان المدافعون عن اقليش من القشتاليين قد التجأوا إلى قصبة اقليش الحصينة ، وامتنعوا بها انتظاراً للغوث والمدد من ألفونسو وما لبثوا أن جاءتهم الأنباء عن قرب إغاثتهم بجيش عظيم مهيب وما لبثت هذه الأنباء أن وصلت إلى الجيش المرابطى أيضاً مما جعل تميم يحدث نفسه عن الإحجام والفرار من لقائهم .. إلا أن قواد لمتونة صمموا على لقاء العدو بالرغم من أن الجيش القشتالى كان متفوقاً فى الكثرة ، وتقدم المرابطون فى اتجاه اقليش للقاء القشتاليين فى فجر يوم الجمعة ١٦ شوال سنة ٥٠١هـ ، وأقبل القشتاليون وبينهم الأمير " سانشو " فوق فرسه ، وتجمع الروايات على أن المعركة كانت بالغة العنف وأن كلا من الجيشين قاتل بمنتهى الشدة ، وحدث أن أحاط بالأمير الصبى شانشو ثلة من الفرسان المسلمين وتوالت الطعان فسقط سانشو من فوق جواده وارتد القشتاليون بعدها إلى طليطلة وحاول الكونتات السبعة الذين كانوا يؤلفون حاشية الأمير القتيل الفرار إلى حصن بلشون فلحقت بهم مجموعة من جيش المسلمين وقتلتهم عن آخرهم وعرف مكان مصرعهم فيما بعد " بالكونتات السبعة " وأحرز المسلمون نصرهم على القشتاليين ، وأمر الأمير تميم بجمع رؤوس القتلى من النصارى ، وميزت منها رؤوس القواد منهم وكدست وأذن من فوقها المؤذنون وفقاً للتقليد المأثور واستولى المرابطون على أسلاب وغنائم هائلة .. على أن خسائر المسلمين فى الموقعة كانت أيضاً ذات شأن ، ويذكر الأستاذ عنان ؟ " أنه يستنتج ذلك إحجام المرابطين عن مطاردة فلول الجيش القشتالى مطاردة شاملة (١) " .

---

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين – القسم الأول ص ٦٦ .

عاد الأمير تميم إلى غرناطة وكتب إلى أخيه أمير المسلمين على بالفتح وترك قوات مرسيه وبلنسيه لحصار قلعة اقليش ، ورأت هذه القوات مناعة هذه القلعة فلجأت إلى الحيلة وتظاهرت بالإنسحاب فخرج النصارى من القلعة فانقضت عليهم وأمعنت فيهم قتلاً وأسراً واحتلت القلعة وترتب على سقوطها سقوط عدة من البلاد والحصون مثل : وبذة وقونقة وأقونية وكونسويجرا (١) .

ولما بلغ ألفونسو السادس نتيجة هذه الموقعة ومصرع ولده وولى عهده الأمير سانشو ، استسلم للنواح والتأوه فى حضور كبار رجال دولته ، ولم يستطع احتمال الصدمة طويلاً إذ توفى فى سنة ٥٠٢هـ أى بعد هذه الموقعة بنحو عام .

ولاشك أن انتصار المرابطين على القشتاليين فى اقليش يعتبر أعظم نصر أحرزوه ضدهم حيث كان من آثاره أن توطّد حكم المرابطين فى شرق ووسط شبه الجزيرة ، وبرزت سمعتهم العسكرية والدفاعية .

على بن يوسف وتخريب منطقة طليطلة :

لما كانت سنة ٥٠٣هـ ، عبر على بن يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية بقصد الجهاد ونصرة الإسلام فى قوات ضخمة واتجه صوب قرطبة فأقام بها شهراً يستكمل أهبته .. ثم غادرها وعبر عنها جبل طليطلة وانقض بقواته على أراضى تلك الولاية فخربها وسبى الكثير من نسائها واستولى على العديد من القلاع والحصون ، واستولى المرابطون على مدينة طلبيرة

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وردوا كنيستها – كما كانت – جامعاً وأخذوا كل ما فيها من سلاح ومتـــاع وعين لها أمير المسلمين والياً من قبله ووضع بها حامية قوية .

كذلك افتتح المرابطون من حصون أحواز طليطلة سبعة وعشرين ، ثم استولوا على مجريط ووادى الحجارة ، ثم ضربوا حول طليطلـــة الحصـــار الذى لبث ثلاثة أيام – وقيل سبعة أيام – وخرجت القوات القشـــتالية بقيـــادة البارهايتس واشتبكت مع المرابطين فى معركة عنيفة وجد المرابطون أنفسهم أمام مقاومة كلفتهم كثيراً ، وتصادف أن دب الوباء فى الجيـــش المرابطـــى فاضطر على بن يوسف إلى الانسحاب والعودة إلى قرطبة .. ثم لم يلبـث أن عاد إلى مراكش .. وكانت هذه الهجمة المرابطية ذات أثر بـــالغ فـــى ردع القشتاليين .

الجهاد يتواصل فى الأندلس :

بعد غزوة على بن يوسف إلى مراكش لم تتوقف الغزوات المرابطيـــة للأندلس ولكنها استمرت على نشاطها وشدتها ، ففى سنة ٥٠٤هـ توسع سير ابن أبى بكر فى فتح البرتغال فاستولى على أشـــبونة وبـــابورة وشـــنترين وبطليوس ، وقد توفى هذا القائد العظيم سنة ٥٠٧هـ وكان علـــى إشـــبيلية فخلفه محمد بن فاطمة وبعد وفاة سير تلاه والى قرطبة منزدلى وابنه محمـــد الذى خلفه عليها حيث ماتا أثناء الجهاد على التوالى ، كما مات عدد كبير من زعماء لمتونة منهم الأمير محمد بن الحاج والأمير ابو إسحاق ابـــن دانيـــال والأمير أبو بكر بن واسينو وذلك فى أول سفر سنة ٥٠٩هـ هذا والملاحـــظ أن ما وقع فى أسبانيا النصرانية عقب وفاة ألفونسو السادس ، وقيـــام ابنتـــه أوراكا على العرش من حروب أهلية ونزاعات داخلية على الســـلطة بيـــن

أوراكاو وزوجها من جهة وبين زعماء جليقية من جهـــة أخـــرى وضعـــف الجبهة الدفاعية للنصارى فى أسبانيا نتيجة هذا النزاع .. كان سبباً فى تشجيع المرابطين لغزو طليطلة ومملكة قشتالة بوجه عام .

مملكة سرقسطة والمرابطين :

قضى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على كل ملوكُ الطوائف ولـــم يستثن منهم سوى المستعين بالله أحمد بن هود صاحب سرقسطة فقد كـــان لا ينازعه ما فى يده . ولا تطرق لخلعه ، قبولاً منه للعفو وإقراراً فيما بينـــهم وبين العدو ، لما تجده مضايقته من تصيير ما فى يدم إلى الـــروم ، فكـــان يلاطفه ، ووجه إليه ابن هود ولده عبد الملك (فى صحبـــة وزيريـــه أبـــى الأصبغ وأبى عامر) ، فقام بحقه ، وصرفه مكرما ، وأصحبه كتابـــة (١) .. وكان ابن هود قد كتب إليه قائلاً : " نحن بينكم وبين العدو سد ، لا يصل إليه ضرر ، ومطاعين قطوف وقد قنعنا بمسالمتكم (٢) " .. فرد عليه يوسف بـــن تاشفين برسالة مماثلة . ولاشك أن المستعين كان يـــهدف مـــن وراء هـــذه السفارة ، اجتذاب المرابطين إلى مظاهر الإسلام فى الأندلس ، بعد أن ســـاء الوضع كثيراً عقب مقتل القادر بن ذى النون فى بلنسيه سنة ٤٨٥هـــ ومـــا وقع بعد ذلك من أحداث أدت إلى قيام (السيد) الكنبيطـــور علـــى حصـــار بلنسيه ودخولها فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـــ .. ولقد ظـــل المرابطـــون يتحينون الفرص لاسترداد هذا الثغر الإسلامى العظيم .. وتم لهم ذلك بقيـــادة الأمير أبى محمد المزدلى فى شعبان سنة ٤٩٥هـــ .. وكانت الأحـــداث قـــد

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ص ١٧٣ .

(٢) الحلل الموشية : ص ٥٤ ، ٥٥ .

توالت بعد سقوط بلنسيه فى يد (السيد) الكنبيطور سنة ٤٨٧هـ .. حيث قام الفرنج بقيادة يانشوا راميرز بحصار وشقة – وهى من أمنع قلاع الثغر الأعلى . فصمدت للحصار بعزم وشدة .. واستمر الحصار بعد وفاة سانشو سنة ٤٨٧هـ بقيادة ولده " بيدرو الأول ، وتوالت ، ووشقة صامدة كالصخرة وبعث أهل وشقة فى نفس الوقت بصريخهم إلى ملكهم المستعين أحمد بن هود فأعد جيوشه ، ونشبت بينه وبين العدو معركة عنيفة فى " الكرازة " الواقعة على مقربة من " وشقة " استمرت من طلوع الشمس إلى غروبها وكثر القتل بين المسلمين وهزم المستعين فى النهاية هزيمة شديدة ، وقدر عدد القتلى من المسلمين باثنتى عشر ألفاً .. كما قتل أيضاً قائد جند قشتالة .. وكان تاريخ تلك الموقعة الأربعاء أواخر ذى القعدة سنة ٤٨٩هـ .. ولما رأى أهل وشقة هزيمة المسلمين يئسوا من لنصرة ولم يلبثوا أن حصلوا على الأمان .. وسلمت وشقة للنصارى ودخلها بيدور فى موكب ظاهر .. وصير مسجدها الجامع كنيسة وجعلها عاصمة لمملكة أرجوان .

والواقع أن المستعين أخذ يشعر من ذلك الحين بأن مصير سرقسطة قد أضحى رهناً بخطط المرابطين ومن ثم فقد رأى فى النهاية أن يستمر فى التقريب إليهم وطلب عونهم ومساعدتهم ولتحقيق هذا المطلب أرسل ابنه عبد الملك إلى أمير المسلمين – مرة أخرى – سنة ٤٩٦هـ ومعه هدية جليلة من جملتها أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة ، وكان أمير المسلمين يومئذ بقرطبة ، فقبل الهدية ، وأمر بأن تضرب هذه الآنية الفضية قراريط مرابطية ، فرقت فى أطباق على رؤساء قومه ليلة عيد الأضحى .. وأحس المستعين بشىء من الطمأنينة .. وقرر أن يوجه جهوده للوقوف فى وجه

مشاريع ملك أرجوان العدوانية .. وأسرع لمواجهة " ألفونسو المحـــارب " – الذى تولى ملك آرجوان بعد وفاة أخيه بيدور – عند " فالتيرا " على مقربـــة من مدينة تطيلة – التى كانت آخر قواعد مملكة سرقسطة الهامة بعد وشقة – إلا أن المسلمين هزموا أيضاً فى تلك المعركة وقتل المستعين وذلك فى رجب سنة ٥٠٣هـ وتولى بعده ، ولده عبد الملك وتلقب ، بعماد الدولة ، وبايعـــه أهل سرقسطة ، وفى هذه الأثناء كان حسن الطالع يؤاتى المرابطين تباعاً منذ أبادوا القوات القشتالية فى موقعة أقليش سنة ٥٠١هـ وقتل فيها ولد ألفونسو من زائدة الأندلسية .. وكتب أهل سرقسطة إلى أمير المسـلمين علـى بـن تاشفين وهو فى مراكش ، يناشدونه خلع بنى هود ، وضم سرقسطة إليـــه ، فاستفتى الفقهاء فأجابوه بوجوب تحقيق ذلك ، فأرسل قائده محمد بن الحـــاج والى بلنسيه لهذه المهمة .. وعلم عماد الدولة بذلك فكتب إلى أمير المسـلمين كتاباً مؤثراً يستصرخه فيه ، ويذكره بما كان بين والديهما من أواصر المودة وأنه لم يصدر منه فى حقه أية إساءة ، وأنه من الخير أن يترك سرقســـطة حاجزا بينه وبين النصارى ، فرق على لملتسمه هذا وكتب إلى قائده أن يكف عنه .. ولكن الأمر كان قد قضى .. فابن الحاج تحرك إلـــى سرقســطة .. واستنصر عبد الملك لمقاومته بألفونسو المحارب ودار قتال بين الفريقين هزم فيه ابن الحاج .. إلا أن أهل سرقسطة أخرجوا عبد الملك واستدعوا عـــامل أمير المسلمين فاستولى على سرقسطة فى سنة ٥٠٣هـ .

ويذكر ابن أبى زرع : " أن ابن الحاج سار من بلنسيه إلى سرقســطة ودخلها فى سنة ٥٠٢هـ ، وأخرج منها بنى هود وملكها (١) " .

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٤ .

وانتهى حكم بنى هود فى سرقسطة .. تلك التى كانت آخر دولة مـــن دول الطوائف تسقط فى أيدى المرابطين (١) .

المرابطون يستمرون فى جهادهم :

لم تكد تحل سنة ٥١٢هـ ، حتى سقطت سرقسطة فى يد النصارى بعد دفاع شريف من لدن سكانها الذين وصلتهم نجدة متأخرة من المغـــرب بعـــد سقوط المدينة ، ولكن تميم بن يوسف صدّ الأسبانيين عن لاردة بعد أن كبدهم خسائر جسمية غير أن الأرجونيين توسعوا فـــى فتوحاتـــهم نســـبياً وظـــل المسلمون يعيشون تحت سلطتهم فى المراكز التى استولوا عليـــها ولقبوهـــم بالمدجنين ، وكانت فتوح الأرجون تشمل فى هذه الفترة جنوب نـــهر إبـــرة واتحد أمير برشلونة مع ألفونس المحارب .

ويعتبر استرداد الجزائر الشرقية واستنقاذها من أيدى النصارى مـــن أعظم الأعمال التى قام بها أمير المسلمين على بن يوسف وكان مبشر بـــن سليمان يحكم الجزائر عقب وفاة المرتضى سنة ٤٨٦هـ فأدار شئونها بحزم ودارية واستمر يحكمها فترة طويلة وتلقب بناصر الدولة ولـــم يفكـــر يومـــاً بالعمل مع المرابطين ضد النصارى مؤثـــراً الاســـتقلال بـــالحكم .. وكـــان النصارى لا يخفون رغبتهم فى السيطرة على هذه المنطقـــة .. كمـــا كـــان المرابطون على مقربة من مبشر بن سليمان يستولون على قواعد الأندلـــس الشرقية على بلنسيه وقواعد الثغر الأعلى سنة ٥٠٢هـ .

---

(١) راجع : دكتور السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير جـــ٢ ص ٧٣٢ - ٧٣٣ ، محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٢٩١ - ٢٩٣ .

وفى أوائل سنة ٥٠٨هـ اتفقت جمهورية بيشة وجنوه وإمارة برشلونة على فتح الجزائر وخرج اسطول الغزو من جنوة يشمل ثلاثمائة سفينة ووحدات بحرية أخرى من برشلونة وفرنسا وحاصر الغزاة ميورقة عاصمة الجزائر ، وقاسى المسلمون أهوالاً من الحصار الذى استمر إلى أواخر العلم سنة ٥٠٨هـ فاقتحم الغزاة أسوار المدينة وعاثوا فيها قتلاً ونهباً وسلباً وكانت محنة عظيمة .

أثناء حصار النصارى لميورقة توفى مبشر .. وكان قد بعث يستصرخ على بن تاشفين عن طريق القائد أبو عبد الله بن ميمون الذى اخترق الحصار بسفينته تحت جنح الظلام ولم يستطع النصارى اللحاق به فأرسل أمير المسلمين أسطولاً ضخماً قوامه ثلاثمائة سفينة أقلعت كلها صوب الجزائر بقيادة ابن تفرطاش . ولما علم النصارى بمقدم هذا الأسطول غادروا ميروقة بعد أن أحرقوها وقتلوا معظم أهلها واستصفوا ثرواتها وخربوا أنحاءها .. واحتل المرابطون المدينة وأعادوا تعميرها سنة ٥٠٩هـ وطاردوا أسطول الفرنج فأسروا بعضاً من سفنه وأغرقوا البعض الآخر .

وأصبحت الجزائر جزءاً من الدولة المرابطية الكبرى يحكمها وانور ابن أبى بكر المتولى من قبل المرابطين .

على بن يوسف فى الأندلس :

عبر أمير المسلمين إلى الأندلس بعد قليل من استرداده للجزائر الشرقية وذلك فى أواخر المحرم سنة ٥١١هـ ، وإن كان ابن أبى زرع قال أن العبور كان ٥١٣هـ (١) ، وأنه هو الجواز الثانى للأندلس من قبل أمير

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٦ .

المسلمين على .. ومهما يكن من خلاف فى الروايات فإن عليا عبر إلى الأندلس بقصد الجهاد وإصلاح شئونها وسار فى قواته نحو أراضى البرتغال وغزا قلمرية .. ولم تستطع قوات الملكة تيرسا ملكة البرتغال يومئذ أن تقوم بأية أعمال دفاعية ذات شأن .. ودخلها على عنوة فى صفر سنة ٥١١هـ ولم يحتفظ على بقلمرية ، ولكنه انصرف عنها عقب افتتاحها إلى إشبيلية " يفسر ذلك موقع قلمرية الثانى وصعوبة الاحتفاظ بها فى منطقة يحيط بها النصارى من كل صوب (١) " .

عاد أمير المسلمين إلى مراكش وقضى بها أربعة أعوام وفى سنة ٥١٥هـ عبر إلى الأندلس مرة رابعة فى جيش من المرابطين وكانت هناك عوامل أدت بعلى إلى هذا العبور منها الهزائم التى منى بها المرابطون فى كندة ، ومنها أن المرابطين الذين اخضعوا الأندلس كانوا يباشرون حكمهم لها بطريق الضغط العسكرى المرهق ولم ينجحوا فى تثبيت دعائم حكم مدنى نظيف ومنها ما كان يمارسه المرابطون من حجر على الأفكار مما أدى إلى تذكر العقلاء والمفكرين إلى جانب ما كان يتسم به المرابطون من تزمت دينى ، على أن الحاميات المرابطية كانت تعامل الشعب فى الأندلس بجفاء وتعال وصلف كل هذا أدى إلى ثورة نفسية بدأ يشعر بها الشعب الأندلسى وترجمت هذه الثورة عملياً فى مدينة قرطبة ، وقدر أمير المسلمين على خطورة هذه الثورة فبادر بالحضور إلى الأندلس لمعالجة الموقف ، واتخذ من الاستعدادات العسكرية ما يدل على خوفه من أن تجد هذه الثورة صدى لها فى باقى قواعد الأندلس .

---

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٨١ .

ثورة قرطبة :

يجدر بنا أن نذكر ما عرضه ابن الأثير عن هذه الثورة لأنه قدم لنا تفصيلات أكثر لم يتعرض لها ابن عذارى ولا ابن أبى زرع ، يقول ابن الأثير : .. أنه لما كان يوم الأضحى سنة ٥١٤هـ ، خرج الناس متفرجين فمد عبد من عبيد أبى بكر يده إلى امرأة فأمسكها فاستغاثت فأغاثها الناس ، فوقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة ونشب القتال بينهم حتى دخل الليل ووصل الخبر إلى الوالى الأمير أبى بكر واجتمع إليه الفقهاء والأعيان واقترحوا عليه تهدئة للحال أن يقتل واحد من العبيد الذين أثاروا الفتنة فأنكر ذلك وغضب ، وفى اليوم التالى استعد للقتال وأظهر السلاح والعدد فاجتمع لقتاله أهل قرطبة بزعامة الأعيان والفقهاء وهزموه ، فتحصن بالقصر فحاصروه ، وفر منهم بعد مشقة فنبهوا القصر وأحرقوا دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من قرطبة على أقبح صورة .. فبادر أمير المسلمين على بالقدوم إلى الأندلس وحاصر قرطبة فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمى دمه وحريمه وماله .. ولما رأى شدة القتال دخل السفراء بينه وبينهم وسعوا فى الصلح (١) .

واستدعى أمير المسلمين القاضى أبا الوليد بن رشد قاضى قرطبة وفقهاء المدينة وجرت بينهم أحاديث طويلة فى أمر الثورة واقتحام قصر الوالى وانتهابه ، وذكر أعيان قرطبه أمير المسلمين بوصية أبيه فى أن يقبل من أحْسَنَ من أهل قرطبة وأن يتجاوز عمن أساء منهم وكان محمد بن داود قاضى إشبيلية فى ركاب أمير المسلمين فجعل يعظم الأمر ويبالغ فى تصوير

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٩٧ .

شناعته ويقول أنه اجتراء وعصيان وضلال ودافع القاضى ابن رشد من جهة أخرى عن موقف أهل المدينة وبين أنهم لم يشقوا عصا ولا نبذوا طاعة وأنه كان واجب الوالى أن يعاقب المذنب من عبيده فقال أمير المسلمين فتمكنـــوا منهم ، فقال ابن رشد ليس لنا قدرة على حصرهم وإنما يحصرهم صـــاحب الأمر ثم بعد ذلك يأمر بالصفح عنهم وانتهت المفاوضات بالاتفاق علـــى أن يقوم أهل قرطبة بالتعويض عما نهب من المرابطيـــن ، وارتضـــى أمـــير المسلمين هذا الاتفاق ولكنه غضب لموقف ابن رشد وإيضاحاته فصرفه عـن القضاء وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين وأمر كذلك بصرف الأمير عبـد الله ابن ينغمر عن غرناطة وأسند إمارة غرناطة إلى أخيه الأمير أبى الطـــاهر تميم وكان يومئذ بفاس فاستحثه إلى الحضور ، ولبث تميم والياً على غرناطة مدى عامين ثم عين بعد ذلك والياً لإشبيلية مكان الأمير أبى بكر بن على بن يوسف فلبث والياً حتى وفاته فى سنة ٥٢٠هـ (١) .

ولم يمكث على بن يوسف هذه المرة طويلاً فى الأندلـــس ، إذ وافتـــه أنباء عن ظهور المهدى بن تومرت ببـــلاد الســـوس الأقصـــى .. وجـــرت بظهوره أحداث خطيرة .

الصراع على غرناطة :

لما سقطت سرقسطة فى أيدى النصارى ، وتوالت انتصارات ألفونســو المحارب ، وظهر التخاذل على الجيوش المرابطية .. بدأ المعـــاهدون فـــى

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٠٦ ، وراجع أيضاً محمد عبـــد الله عنـــان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الأول ص ٨٤ - ٨٥ .

التحفز والتفكير فى إمداد عاهل الثغر الأعلى بكل أنواع الإمداد لضرب المسلمين فى الأندلس ، وكانت أشد الطوائف النصرانية نشاطاً ضد المرابطين نصارى غرناطة فقد كانت لهم كنيسة خارجها فريدة فى العمارة والطراز ولما استولى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على غرناطة ، أخرج أهل غرناطة لهدم هذه الكنيسة تحقيقاً لرغبة الفقهاء فى آخر جمادى الآخرة سنة ٤٩٢هـ .

كانت غرناطة قاعدة للحكم المرابطى فى الأندلس ، ولذا حرص النصارى فيها على القيام بالدور الرئيسى فى المؤامرة .. فأرسلوا إلى ألفونسو أسماء اثنى عشر ألفاً من أعظم مقاتليهم ، وأفهموه أن هناك عشرات الآلاف غيرهم على استعداد لمساعدته ولكنها لا تستطيع الإعلان عن نفسها .. وأرسلوا إليه – أيضاً – كل أخبار غرناطة وكل المعلومات التى تساعده على فهم المدينة واقتحامها وأغروه كذلك بما تمتاز به المدينة من صفات كان لها أثرها فى شحذ همته وتقوية عزيمته .. وكان ضعف المرابطين وتضعضع قواهم من العوامل التى دفعت ألفونسو وشجعته على اختراق الأندلس وتحقيق غايته .

خرج ألفونسو فى جيش بلغ خمسة عشر ألفاً ومعه عدد من رجال الدين مما جعل لحملته طابعاً صليبيًّا .. واتجه شرقاً فاخترق لاردة وإفراغه ثم بلنسيه وقد ساعده المعاهدون فى كل هذه المناطق فدلوه على الطريق .. ثم سار إلى جزيرة شقر ورحل منها إلى دامية مارا بشاطية وأوريوله فوصل إلى مرسيه ثم إلى بيره ، فبرشانة .. ثم انتقل إلى بسطة محاولاً افتتاحها لكنه فشل .. فذهب لمقاتلة وادى آش واستمر لذلك زهاء شهر .. وكان ألفونس

حريصاً فى كل منطقة ينزلها على أن ينسف زروعها ويحرق قراها ويدمر منشآتها ، ولما رأى نصارى غرناطة أن ألفونسو أصبح قريباً من المدينة أرسلوا يستدعونه فأمر أميرها باعتقالهم ولكنه عجز عن إحصائهم وفى الوقت نفسه استعد الأمير أبو الطاهر تميم القائم على شئون الأندلس آنذاك بقواته وجاءته قوات أخيه الأمير علي وقوات أخرى من مرسيه وإشبيلية وأصبحت غرناطة وسط هذه الحشود الضخمة كالنقطة ، ووصل ألفونسو بقواته التى أصبحت زهاء خمسين ألفاً إلى شرق المدينة .. ونشب القتال بين الفريقين أحس ألفونسو أنه أمام قوة يصعب القضاء عليها فاتجه بقواته إلى مرسانة ثم شمالاً إلى قلعة يصحب وترك غرناطة إلى حين وألقى باللائمة على المعاهدين الذى تقاعسوا عن مساعدته وطارده المسلمون فى كل مكان نزل فيه .. فاتجه بقواته نحو الجنوب الشرقى وعبر جبال سييرا نفادا ومعاودا الرجوع إلى غرناطة فانتقل إلى القرى والمناطق المحيطة وحدثت معه مناوشات من قبل الجيوش الإسلامية أصيب فيها عدد كثير من قواته .. أدى به إلى العودة إلى بلاده فاتجه شرقاً إلى مرسيه .

لم يحقق ألفونسو من وراء حملته الشاملة هذه – على الأندلس – أية نتائج عملية ولكنه ساعد المسلمين على أن يتيقنوا بأن النصارى المعاهدين لم يكونوا يشعرون نحو الحكومة الإسلامية بذرة من الولاء بل كانوا يمثلون خطراً على الأندلس واتجهوا إلى حمل كبير الجماعة فى قرطبة القاضى أبا الوليد بن رشد ، على الذهاب إلى مراكش وشرح ما حدث منهم لأمير المسلمين على بن يوسف وما منيت به الأندلس بسبب نقضهم للعهد وخروجهم على الذمة ، وأفتى بتغريبهم ووجوب إجلائهم عن أوطانهم ،

فأصدر أمير المسلمين عهداً إلى كل أمراء الأندلس بتغريب المعاهدين إلـــى المغرب على أن هذا التغريب لم يكن شاملاً ، فقد سيق الكثيرون منهم إلـــى عدد من مدن المغرب وهلك كثير منها أيضاً خلال العبور وبقيت مجموعـات أخرى فى غرناطة وفى قرطبة ، لتنموا وتزدهر مرة أخرى وقد وقعت هـذه النكبة للمعاهدين فى رمضان سنة ٥٢١هـ وكان من نتيجة غزو ألفونســو للأندلس أيضاً أن اكتشف المسلمون ضعف نظم الدفاع عن الأندلس وفشـــل خطط القيادة المرابطية فى ردع الأطماع النصرانية (١) .

وقد اشتبك المرابطون مع ألفونسو المحارب فى معركة نشـــبت فـــى مكان يعرف بالقلاعة وهى جنوبى بلنسيه وكانت هذه المعركة عنيفـــة منـــى المسلمون فيها بهزيمة فادحة وبلغت خسائرهم اثنى عشر ألفاً بين قتيل وأسير وقد استولى ألفونسو عقب المعركة على بلدة قلاعة وحصنها ثم أقطعها لأحد أكابر رجاله ممن أبلوا فى خدمته وكانت هذه المعركة فى سنة ٥٢٣هـ .

على أن هناك معركة من أشد وأعنف المعـــارك التـــى وقعـــت بيـــن المرابطين والنصارى فى الثغر الأعلى .. قد وقعت تحت أســـوار إفراغـــة وكانت قوات المرابطين بقيادة ابن غانية وعددها عشـــرة آلاف فـــارس (٢) وكان الجيش النصرانى اثنى عشر ألف فـــارس ، وقـــد أبـــدى المســـلمون ضروباً رائعة من البراعة والبسالة وقاتل النصارى الأرجونيون بفيض مـــن الشجاعة والمهارة وانقض أهل افراغة على النصارى من الخلـــف واشـــتد

---

(١) الحلل الموشية : ص ٧٥ .

(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (ترجمة محمد عبد الله عنان) ص ١٦٤ .

الأمر عليهم وسقط منهم العديد من القادة وأصيبوا بهزيمة منكرة واستولى المسلمون على محلتهم كما استولوا على السلاح والعتاد .. وقد وقعت فى ٢٣ رمضان سنة ٥٢٨هـ وسقط فيها ألفونسو المحارب وتقول بعض الروايات أنه توفى بعدها بأيام (١) .

وكان لهلاك ألفونسو أن زال الخطر - إلى حين - عن أراضى الثغور الأعلى التى كانت بأيدى المسلمين فقد كان من أعظم ملوك أسبانيا النصرانية فى العصور الوسطى .

وكان لنصر المرابطين فى هذه المعركة أثر بالغ وصدى عميق فى سائر أنحاء الأندلس حيث عادت إليهم سمعتهم العسكرية التى اكتسبوها منذ موقعة " الزلاقة " .. كما وضحت شجاعة يحيى بن غانية قائد المرابطين فى هذه المعركة .

وكما حدث من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عقب معركة الزلاقة من خطأ عسكرى حيث أحجم عن استغلال النصر الذى حققه فى الزلاقة لاسترداد طليطلة .. حدث أيضا من أمير المسلمين على بن يوسف فقد أخطأ عسكرياً حينما أحجم عن استغلال النصر الذى حققه بقيادة قائده بن غانية على النصارى فى افراغه لاسترداد سرقسطة (٢) .

---

(١) ابن الأثير جـ ١١ ص ١٢ .

(٢) سبق أن تحدثنا عن : سرقسطة والمرابطين انظر ص ٧٤ .

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
❊ العـــالم الإســـلامى فـــى هـــذا العصـــر .	١١
❊ المغـــرب قبيـــل الغـــزو المرابطـــى .	١٢
❊ نشـــــــأة الدولـــــــة .	٢٩
❊ ظـــــهور الدولـــــة المرابطيـــــة .	٤٥
❊ ظـــــهور يوســـف بـــن تاشـــفين .	٤٥
❊ أســـــباب تأســـــيس الدولـــــة .	٤٩
❊ الدولـــــة المرابطيـــــة (دور العظمـــــة) .	٥٤
❊ يوســـف بـــن تاشـــفين ٤٥٣ - ٥٠٠ .	٥٤
❊ الجـــــهاد فـــــى الأندلـــــس .	٥٧
❊ موقعـــــــة الزلاقـــــــة .	٦٣
❊ نتـــــائج موقعـــــة الزلاقـــــة .	٧٠
❊ حصـــــار حصـــــن لييـــــط .	٧٢
❊ إخضـــاع الأندلـــس لحكـــم مباشـــر .	٧٥
❊ قصـــــة زائـــــدة الأندلســـــية .	٨٦

الموضـــــــوع	الصفحة
❊ لماذا كان العنف وسيلة ابن تاشـفين مـع المعتمـد .	٨٩
❊ ابـن تاشـفين فـى الأندلـس للمـرة الرابعـة .	٩٢
❊ عبقريـة يوسـف بـن تاشـفين .	٩٤
❊ علـى بـن يوسـف ٥٠٠ - ٥٣٧ .	٩٦
❊ علـى بـن يوسـف وتخريـب منطقـة طليطلـة .	١٠٠
❊ الجـهاد يتواصـل فـى الأندلـس .	١٠١
❊ مملكـة سرقسـطة والمرابطيـن .	١٠٢
❊ المرابطـون يثمـرون فـى جـهادهم .	١٠٥
❊ علـى بـن يوسـف فـى الأندلـس .	١٠٦
❊ ثـورة قرطبـة .	١٠٨
❊ الصـراع علـى غرناطـة .	١٠٩
❊ الفهـرس .	١١٤